حروق الثلج

سمير يوسف

رواية

دار الساقي

حروق الثلج

سمير يوسف

رواية

دار الساقي

حروق الثلج

سمير يوسف

حروق الثلج

دار الساقي

آفاق AFAC

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتماً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٧

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٨

ISBN-978-614-03-0087-3

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين
دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 5290–13، لبنان
هاتف: +961-1-218-901

email: info@arabculturefund.org

www.arabculturefund.org

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثانية، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

”متقلبة، شرهة، قلقة، إن الجنسانية المعاصرة وحيدة قبل كلّ شيء. لقد استغنت عن الآخر لكي تستمتع باستقلالية كاملة، إنما مؤلمة“.

(استبداد اللذة – جان كلود غيبو)

١

بين الدجاجات الطليقة التي تنقر في رماد المناقل يفكر نجيب، يصوّب جيداً، ثم يضرب بمعوله بحذر. منذ أن مرّت الجرافة بجانب منزله منذ حوالي أسبوعين، يتوجس من الجورة الصحية. يعرف أنه هو شخصياً ومعه المعول والدجاجات ليسوا بعيدين عن الجورة. من بمقدوره أن يتنبأ بمسلك الخراء الباطني أصلاً؟ في الواقع قد يكون فوقه تماماً. من يمكنه اليوم أن يجزم أنه لم يتوسع ولم يمتد، ولم يصل تحت سريره في غرفة النوم. مع ذلك سيستمر نجيب بالحفر محاولاً أن يجد المزيد من القطع النقدية القديمة.

وجد هادي الصغير، ابن جاره، بجانب الجورة عقب مرور الجرافة قطعتين من معدن سوداوين مستديرتين. دلف الصغير بهما يومئذٍ إلى البيت، غسلهما بالخل وعصير الليمون عاملاً بنصيحة جدته، فتوضحت عليهما كتابات قديمة. تبيّن أن القطعتين، مجهولتا المصدر واللغة، قيّمتان جداً على ذمة الأستاذ نبيه مدرّس التاريخ في التكميلية.

بعضُ مَن سمع خلاصة الأستاذ نبيه قال إنه يثرثر، والبعض الآخر كان أقسى فقال إن نبيه يعرف طيزي. ثم عاد هادي الصغير ليبحث لاحقاً عن المزيد، وبحث حيث يحفر نجيب الآن. ومع أن الصغير ذاع صيته بالشيطنة والرذالة أقرّ، ربما لسعادته المفرطة، بما وجده، بمجرَّد أن سأله نجيب الذي استغرب وجوده داخل أرضه.

طرد نجيب الأصلع، الصغيرَ هادي بعد أن نفض سيجارته في وجهه، خصوصاً وأن بقايا عظام متناثرة في حافّة الطريق المقطوعة، كحلوى، أثارت انتباهه، وقدّر فوراً أنها تعود لمقبرة ما. تشابكت الأفكار في رأس العسكري المتقاعد بطريقة لم تحصل له منذ مدة. لو أن الأفكار تُسمع مثلما يُسمع هدير الآلات لسُمع صخب أفكاره وطقطقتها في رأسه عن بعد عشراتِ الأمتار كأنها مجموعةٌ معدنية لآلةٍ من عصر الميكانيك.

يأمل نجيب أن يجد تحت المقبرة والجورة الصحية كنزاً يثريه إلى ما شاء الدهر. إلا أنه حتى هذه اللحظة بالذات التي يضرب فيها معوله بحذرٍ، ليس هناك من ضلعٍ مؤكدٍ في ثالوث المقبرة - الكنز - الجورة، سوى الأخير. وعليه فثمة احتمالٌ بأن يكون مثلث نجيب بضلعٍ واحد.

تقدمت صبية نحيلة بعض الشيء على الطريق الجديد، تنتعل خفّا أبيض، وتعاني في مشيها من وخز البحص الذي لم يُحدل جيداً. كانت تحمل صينية غطت وجهها بخرقة بيضاء مقلمةٍ بالأحمر،

وترددت في المرور بجانب نجيب كي تسلم عليه، فالنقطة حيث وقف الرجل يشرب سيجارته وسخةٌ حقاً، ورؤية الأشواك وتلال الرماد والدجاجات السارحة جعلت الصبية تتراجع. وسرعان ما اتخذت قرارها ووفّرت مشقة العبور على نفسها، فحيَّت نجيب من حيث هي:

- يعطيك العافية عمّي، هدى في البيت؟

ابتسم نجيب للصبية بسعادة بالغة قد لا يفهم سببها من يراه واقفاً في هذه المزبلة حيث هو، ثم قال لها إن هدى زوجته - الله ينجينا - تشاهد مسلسلاً سورياً من المسلسلات الأربعة.

وأضاف قائلاً:

- آمل أن لا تبدأ بالمسلسلات التركية وإلا متنا جوعاً.

صعدت منال درج البيت بخفة ثم دخلته بعد أن طرقت الباب مرتين من دون أن يأتيها جواب. اتجهت إلى المطبخ، فسمعت من هناك أصوات الممثلين الصادرة من التلفاز. شمّت رائحة سائل تنظيف، ثم قفزت فوق الهوفر المتروكة في وسط الردهة، فتحت البراد بهدوء ووضعت فيه الصينية التي حملتها معها. دلفت بعد ذلك إلى الصالون حيث جلست هدى تتابع المسلسل. الساعة المعلقة على الجدار كانت تشير إلى الثانية إلا خمس دقائق ما يعني أنه تبقّى القليل حتى ينتهي المسلسل.

نهضت هدى كأنما هناك حالة طارئة، أمسكت منال من معصمها وأجلستها بجانبها على الكنبة حتى انتهت الحلقة التي شابت دقائقها الأخيرة موسيقى خطر مبتذلة. وسألت منال أم جوزيف عن الفراريج فأجابتها أنها جاهزة وعليها أن تذهب إلى البلدة لتحضرها. فمن المفترض أن يصل جوزيف غداً عند العاشرة وسيتبعه المدعوون بدءاً من الظهيرة. وتقول معلومات نجيب، أو أبي جوزيف، المنهمك بتحديد الجورة الصحية لردمها لاحقاً على ما تعتقده الزوجة، إن العميد الأفيوني خدم العائلة وجوزيف فنقله إلى مركزٍ في الجوار، وأردفت أم جوزيف:

- هِهْ! وكيف لا يخدمنا؟! عمّك شاله، أنقذه من الموت في الأيام السوداء... سحبه مثلما تسحب الشعرة من العجين!

المناسبة يوم غدٍ كبيرة حقاً. بالنسبة إلى منال وأم جوزيف ثمة أمران يستحقان كل هذه الأتعاب. خطبة جوزيف ومنال، والاحتفال بعودته إلى المنطقة بموجب التشكيلات التي أنجزها العميد الأفيوني. أضف إلى هذين السببين سبباً أخيراً للاحتفال سيشرب أبو جوزيف المتقاعد نخبه سراً، إنه الكنز الذي لا بدّ أنه مطمور في مكان ما في أرضه، ربما يكون تحت الجورة.

٢

نزّ قلم الحبر الأزرق في جيب جوزيف بينما كان يقود السيارة في اتجاه مركز عمله الجديد، وهو مركز معزول على مقربة من قرية ميم الحدودية في شمال لبنان. تمدّدت بقعة الحبر على بدلته العسكرية المرقطة من دون أن ينتبه إلى ذلك. نظر إليه الرقيب المسؤول عن مركز قوى الأمن الداخلي وأدرك أن القلم فار قبل قليلٍ على صدره، وأنه لم يتقصد الإهمال أبداً. من الواضح أنه خرج من بيته بحلة مرتبة، فجزمته تلمع، وذقنه حلقت للتو. نظر إليه وقال:

- ليش لازم لك قلم الحبر؟

شربا القهوة وحدهما، فـالعرصان الآخران، كما قال الرقيب، سيتأخران في التنور لأنهما على الأرجح ملهيان بفخذي ماريا. ساد صمت بسيط واصطنع الرقيب هيئة المشغول البال، فأخذ يرتشف القهوة مصدراً صوتاً قوياً، وراح يتطلع تارة إلى السيارة الرباعية الدفع في ساحة المركز، وطوراً إلى شباك المكتب ما أوحى لجوزيف أنه أضاع شيئاً ما ولا يعرف إن كان سيجده في السيارة أم في المكتب.

مرّ الوقت بسرعة. حدّث جوزيف الرقيب عن الحرّ في بيروت وعن سعادته بالعودة إلى المنطقة. وبعد حوار فارغ مملّ شرح الرقيب لجوزيف عن كلّ شيءٍ في المركز وسلّمه قطعته الأميرية، وهي نسخة سلوفاكية عن بندقية الكلاشنيكوف الروسية، ثم قال له إن بإمكانه حملها معه إلى البيت إن شاء، لكنه حذره من إضاعتها بعد أن أخذ توقيعه. وأضاف متفلسفاً:

- شيئان لا تجوز إعارتهما، السلاح والمرأة.

أشار الرقيب إلى سيارة الـ"جي. أم. سي." الرباعية الدفع التي يعلوها جهاز لاقط وقال له إنها سيارة الدوريات الوحيدة في المركز، لكنه أبلغه بأنه لن يقودها قبل أن يصبح آمر آلية، فالعقوبة ستكون قاسيةً لو قادها من دون الشهادة العسكرية. فهم جوزيف أن الآلية يجب أن تركن خلال النهار حيث هي الآن، وأن من واجبه تذكير الزملاء دائماً بركنها ليلاً خلف المركز، بلصق الحافة، حمايةً لها من قصف محتمل قد يندلع من الجهة السورية المقابلة. فبحسب الرقيب، إن الجيش السوري على استعداد لإطلاق وابل من النيران إذا رأى ثعلباً يتحرك في حرجة النهر.

دارا معاً حول الثكنة الصغيرة فبانت لهما كنيسة قرية ميم الحدودية، وهي تركة صليبية ذات حجارة بركانية سوداء قاتمة. وكان هناك على بعد خمسين متراً منها مجموعة براميل حديدية طليت بألوان

العلم اللبناني وصفّت بترتيب على مدخل مركز الجيش الوطني الذي قابله في المقلب الآخر مركز للجيش السوري النظامي ويمكن المرء أن يرى على جداره البنيّ الأجرد رسماً ضخماً ورديئاً لعسكري يضع نظارتيْ رايبن.

داخل المركز مكتبان وخزانة حديدية وحيدة جرداء اللون، تنقصها الدرفة اليسرى وتحتوي على بضعة ملفات اكتسحها الغبار. أما على الحائط فما زالت معلقة صورة رئيس الجمهورية الأخير، وكانت الصورة نفسها قد سببت سوء تفاهم في وقت سابق بعد رفض الرقيب إزالتها لأنها ترمز إلى السلطة العليا في البلاد وذلك على الرغم من خروج الرئيس من القصر الجمهوري. كان روبير بطريقةٍ أو بأخرى يربط بين الصورة والفوضى في سوريا ورفض نزعها.

بعد أن تمدّد الحبر إلى ما فوق حزامه بقليل أمر الرقيب جوزيف بنزع البدلة العسكرية عنه. قال له إن هناك بدلات أخرى في الدواليب الخشبية في غرفة المركز الثانية حيث أسرّة النوم. لبس جوزيف بدلةً باهتة اللون ثم نظر إلى الرقيب وهو يسحب الكرسي ويجلس وراء المكتب. تجمد الشاب قليلاً في مكانه قبل أن يدعوه الأخير إلى الجلوس.

زرع الرقيب سيجارة في فمه، ثم قال بنبرة صريحة:

- هذا المركز مجرد نقطة مراقبة أنشؤوها سابقاً للحد من أعمال التهريب... لكن هذا التهريج كان قبل الحرب في سوريا.... هه! رزق الله على تلك الأيام التي كنا ننام فيها مطمئني البال، ونستيقظ لاصطياد الفرّي صباحاً... إسمع... لو انقلب الوضع في سوريا لصالح الإسلاميين، كان الله بعوننا، خصوصاً أنا وأنت...

تصوّر جوزيف مجموعة من المجاهدين، حمر اللحى، يجتازون النهر ليلاً ويسلكون الطريق الزراعي المؤدي إلى قرية ميم، ثم يتجهون صوب نقطة المراقبة للقضاء على من فيها وأكل قلوبهم وأكبادهم كما رأى على يوتيوب سابقاً.

نبَّهه الرقيب قائلاً:

- المهم... إذا رأيت مسلحين، اتصل بالجيش فوراً. الشباب على مرمى حجر من هنا وما عليك إلا أن تنزع السماعة عن الحائط. نحن قوى أمن داخلي ولسنا جيشاً. وإذا أطلقتِ النيران علينا فاتصل بالجيش قبل أن تقوم بأيّ شيء آخر... لا أريد منك أن تغفو أثناء نوبات الحراسة الليلة. نم قدر ما تشاء في النهار... لا أريد أن نؤسَر، وأن ترسل لأهلنا فيديوهات نظهر فيها بمخالٍ مقرفة. رأيت هؤلاء المخطوفين... الله يصبّر أمهاتهم.

ثم أضاف:

- ثمة شيء آخر بالغ الأهمية... اسمك جوزيف واسمي روبير، وهذا كافٍ لكي تفهم وحدك... لا تتعاطَ بالسياسة مع أحمد ومصطفى أبداً أبداً.... خصوصاً فيما يتعلق بسوريا... ولا أي كلمة أو سؤال...

يعلم جوزيف في قرارة نفسه أنه طفل مقارنة بالرقيب الذي لا بد أنه خاض تجارب قاسية. وفيما أخذته أفكاره ذات اليمين وذات اليسار استرعى انتباهه ملصق لسيدة تبدو في أواخر الثلاثينات علق على الحائط في الغرفة الثانية بجانب أحد الأسرة الحديدية. قدّر أن الملصق يعود لنجمة غناء من تلك النجمات الأجنبيات اللاتي لا يعرف عنهن شيئاً. استمتع بجمالها، خصوصاً بزنديها الممتلئين اللذين لا تملك منال خطيبته مثلهما. بدت له امرأة ناضجة وحقيقية.

وبينما كان يتأمل خدّي المرأة ونظارتيها ذات الإطار الأسود السميك، سأله الرقيب إن كان صاحب مؤهلات معينة في عالم الحواسيب، ثم سأله إن كان يعرف كيف ينظف الكومبيوتر، فهناك فيروس فيه. تلعثم جوزيف قليلاً متفاجئاً بالسؤال. قال إن باستطاعته تحميل برنامج مجاني يمكن أن يزيل الفيروسات الصغيرة. سيرى ما بوسعه فعله. فنهض الرقيب عن كرسيه وأجلسه مكانه وفتح له شاشة الكومبيوتر بعد أن أدخل الرقم السري على صفحة الويندوز، ثم غادر قائلاً:

- سأذهب لرؤية صديق لي في مركز الجيش، رزق بطفل.

شعر جوزيف بشيء من السعادة. ثمة سكينة في هذا المكان. سكينة عذبة، لم يعرف لها حيزاً في صخب منطقة ضبية حيث أنجز دورته. راح يتساءل عن زميليْه أحمد ومصطفى. ماذا يفعلان في التنور يا ترى، ومن هي ماريا هذه؟ حمّل برنامج أنتي فيروس اسمه أفاست. حتى تلك اللحظة كانت الصورة الموجودة على خلفية الشاشة هي لوغو قوى الأمن الداخلي، لكنها بسحر ساحر تغيّرت، فظهرت أمام جوزيف صورة المرأة نفسها التي علق ملصق لها على الجدار في الغرفة الثانية. والصورة على الكومبيوتر أقلّ احتشاما من صورة الملصق.

في دهشته أرجع جوزيف رأسه إلى الوراء. الكومبيوتر فعلاً مُصاب. حاول تنظيفه بما استطاع إليه سبيلاً. أراد بشدة القيام بذلك ليعطي الرقيب انطباعاً جيداً عنه منذ اليوم الأول. وسار كل شيء على ما يرام إلى أن انبثقت أمامه صفحة دعائية أخرى عليها صورة رجل أسود ضخم، لا يلبس سوى سرواله التحتي الضيق، يكتّف زنديه المفتولين ويستدير ناحية المصور. بجانبه، تركع امرأة، بيضاء البشرة، سوداء الشعر، طلت أظافرها بالأحمر، ووضعت يديها على أسفل بطن الرجل المقطع العضلات، بحيث لامست أذنها اليسرى فخذه اليمنى، وهي تعضّ على شفتها، وتلبس ثوباً أحمر يلفت بشفافية عالية عند مؤخرتها "المشقولة".

أخذ جوزيف يعدّ الأيام التي لم يشاهد في خلالها أفلام البورنو. كانت ثلاثة فقط، وقد انقطع عن المشاهدة بسبب الخطبة وما سبقها وتلاها من ترتيبات. انتقد نفسه بعد ذلك بقسوة، كأنما هذا النقد ليس سوى تكملة لحوار طويل ودائم بينه وبين نفسه. وقال في نفسه إن التوقف عن مشاهدة البورنو أقل ما يمكن القيام به في مناسبة مثل هذه.

٣

ركن جوزيف الرينو **18** خلف سيارة أبيه في الباحة أمام المرآب، وترك المفتاح فيها لأنه خطط لنوم طويل. لاحظ وجود ستفة من شوالات الباطون بجانب باب الدرج. ظن أن أباه تمكن من تحديد الجورة، واشترى الباطون وقضبان الحديد لصبّها مجدداً. انتشل سلاحه من سيارته، انتزع منه المخزن، وتأكد من إفراغ بيت النار بخرطشتين متتاليتين سمعهما الجيران. صعد بعد ذلك الدرج الضيق المؤدي إلى الشرفة، والسرير لم يفارق باله.

بيت أبي جوزيف هو البيت الوحيد في القرية الذي يدخله الناس مروراً بشرفته أولاً، مهندس القرية المتواضع هو من أشرف على تصميم هذا البناء شخصياً. عند وصوله إلى الشرفة، تفاجأ جوزيف بحشد من الإبتسامات يستقبله. أم منال، أبوها أيوب، ومنال يجلسون في ضيافة والديه.

العلاقة بين العائلتين مستجدة. الخلاف الذي سبقها كان كبيراً والقطيعة دامت سبع سنوات. وتبقى هناك حتى هذه اللحظة فجوات من الصمت في الأحاديث المتبادلة، خصوصاً في تلك الأحاديث التي تتناول الحقبة التي حلت فيها القطيعة. يعود سبب المشكلة إلى العام **2006**، تحديداً إلى ذلك اليوم الذي قصف فيه الطيران الإسرائيلي الطريق الدولية إبان حرب تموز. كان جوزيف سرق سيارة أبيه وخرج يتسكع سرّاً برفقة منال إلى حفلة كيرميس في بلدة مجاورة.

عاشت أم منال ساعاتٍ قاسية وهيستيرية، خصوصاً وأن معتوهاً مرّ بالقرية عقب القصف مباشرة وقال إن جميع الأولاد الذين كانوا في دير النبي الياس تفحموا جراء القصف الإسرائيلي وإنه، هو الأخير، نجا من الموت بأعجوبة لأن الصاروخ انفجر خلف البوسطة التي يقودها. لم يكتفِ هذا الأحمق بترويع الأمهات فقط، بل حدّث الرجال قائلاً إن الطائرات قصفت مكان الكيرميس لأن قادتها ظنوا المفرقعات مضاداتٍ جوية، وإن البلدية هي المسؤول الأول عن المذبحة.

سريعاً اكتشف جوزيف أنّ مواد البناء التي رآها بجانب الكاراج لا علاقة لها بالجورة الصحية التي لم يتمّ تحديدها بعد بحسب أبيه الذي يفضل تفادي الحديث عنها. أخذ جوزيف يرتشف القهوة، ثم فاجأ الجميع وأشعل سيجارة أثارت سخط أمه ومنال اللتين علقتا على ذاك مستاءتين. السيجارة ذاتها أفرحت أباه نجيب الذي رأى، عبر دخانها الأبيض المتصاعد، أن ابنه بدأ يصبح رجلاً حقيقياً.

يعتقد نجيب أن السلك العسكري وحده يصنع الرّجال الأشداء، ويرى أن ابنه لا ينقصه شيء أبداً ليكون رجلاً صلباً. ربما ينقصه شاربان فقط، لكن بئس الموضة الجديدة، إنها تقدّر اللحى والشعر، ولا

تقدّر الشاربين، لذا لا يمكنه أن يقنعه بتركهما.

قفزت منال إلى جانب جوزيف بسرعة، أمسكته بيده، فرمق أبوها حركتها تلك بنظرة جافة. طلبت منال من عمها إخبار جوزيف عن مواد البناء، فسمع الأخير الذي تمكّن منه الوسن، أنّ المواد ستكون دفعة أولى من دفعاتٍ لاحقة منها، وأنها ستستعمل في تعمير بيت العروسين.

ابتسم نجيب قائلاً ما يناقض نواياه الحقيقية:

- خطبتك من هذه الصبية الحلوة أنجزت... لسنا مستعجلين على طردكما من البيت، لكن من الجيد أن تبدأ البناء منذ الآن. حجرة حجرة يا بابا... أليس كذلك يا أبو ربيع؟ موجهاً كلامه إلى والد منال.

- كنت أريد أن أشتري سيارة يا بابا...

- ما حاجتك إلى السيارة؟ ما بها الرينو؟ عروس!

في الليلة نفسها حضّرت هدى أم جوزيف مائدةً فاخرة، ورافق أهلَ العروس أيضاً كاهن القرية، الأب جوزيف الراعي. اسم لا يليق إلاّ بكاهن حقاً. شرب الجميع قليلاً، وشعر والدا منال بالتعب فجأة، فنهضا وغادرا بعد أن طلبت أم منال من ابنتها، بحياءٍ لطيف لم يلاحظه أحد، ألا تتأخر كثيراً قبل العودة إلى البيت.

مضت نصف ساعة تقريباً، طلبت في خلالها أم جوزيف غيرَ مرة من منال العودة إلى البيت. ثم قام الكاهن منسحباً قبل أن تغادر منال. كان ثملاً بعض الشيء، لكنه تماسك أمام المضيفين، ومشى بحذرٍ نحو السلم حاملاً جاكيتته السوداء. إن صورة الكاهن في القرية هي صورة رجلٍ صعبِ المراس، قاسٍ، محافظٍ جداً، لا يقبل إلا بشريعة الله. ولكن يعرف البعض أن للكاهن وجهاً آخر، فهو محبّ للسلطة ولديه ضعف معيّن حيالها. إنه سعيد بكونه كاهناً وبأنّ كلمته مسموعة حيثما وجد. إضافةً إلى كل هذا، هو صاحب ماضٍ عسكريّ. لقد كان ضابطاً برتبة عالية، وتسلّم في سنوات الحرب الأهلية قيادة أحد أفواج المدفعية.

غير أنّ كلّ قسوته وتاريخه العسكري تبدّدا في تلك اللحظة، وبالتأكيد كان لكأسَيْ العرق ضلعٌ بذلك. لبس جاكيتته البلايزر أمام الباب المؤدي إلى الدرج، عقد زرّ ياقته البيضاء الكرتونية، شكر رب البيت وربّته بكل كياسة، ثم قال مازحاً بصوته الأجش:

- أم جوزيييف، هوهووو، أتركي العريسين وحدهما...

أولاً وأخيراً سوف يفعلانها، هوهو!

سمع والدا جوزيف نصيحة الكاهن فخلدا إلى نومٍ أمِل نجيب الثمل أن يأتيه برؤيةٍ تشكف له مكان الكنز المطمور قرب جورته، فيستخرج منه آلاف العملات النقدية القديمة ويبني مشغلاً سرياً خاصاً،

فينظفها ثمّ يبيعها ويكسب ثروةً طائلة. سمع منذ يومين أن في أوكرانيا سوقاً سوداء يتمّ فيها تذويب الذهب وبيعه:

- من لبنان إلى أوكرانيا الله يدبّر.

هذا ما كان يقوله في نفسه.

أطفِئت أنوار معظم البيوت المجاورة، وانطفأ النور في بيت أهل منال عند الحادية عشرة والربع تحديداً. عند منتصف الليل، انقطع التيار الكهربائي عن القرية، فانطفأت معه أنوار مركز البلدية الفارغ وإنارات الشارع، ليعمّ ظلام مؤنس، حمل نسيمُه الربيعيّ رائحة زهرة الكولونيا الضخمة التي زُرعت في حديقة مطانيوس غريب.

شهرة مطانيوس تتطابق مع واقع عائلته. يعرف بيت غريب بهذه الكنية لأنها اسم شهرته بالدرجة الأولى، غير أنّ بعض القرويين لا يعيرون هذه الحقيقة أهمية، وهم مقتنعون إلى حدّ ما أن الرجل ينادى بغريب لأنه يتصرف مثل غريبٍ في القرية. علاقة العائلة بالقرويين شبه معدومة، وهي معفاة من الواجبات، وحتى من الزيارات، وهذا كاف ليسمّى غريب.

في بيت مطانيوس غريب توليفة حلوة من المتعلمين والمثقفين، وهو البيت الوحيد في القرية الذي يحوي مكتبةً وزيتياتٍ وكتباً أدبيةً وعلميةً منها نسخات ذات جودة عالية من الموسوعة البريطانية ومخطوطات قديمة، وأخرى خنفشارية مثل نبوءات نوستراداموس، وكتب السحر العربي.

لا أحد في القرية يعرف حقاً ماذا يفعلون في بيت غريب كي يكسبوا لقمة عيشهم، ولا أحد يعرف من أين لهم المال لشراء الكتب والتبذير على الآلات الموسيقية الباهظة، شراء السيارات الألمانية والإنجليزية القديمة، إمضاء الوقت في قراءة الجرائد، والتحدث بالفرنسية والألمانية عبر السكايب. البعض يشيع أن أهل البيت مرتاحون مادياً. إنه على العموم بيت عجيب زرع في مستطيل وسط القرية، أحاطت به أشجار حور مغبر، كأنما هو جزيرة بحالها.

مع ذلك قد تبقى معرفة القرويين بهذا البيت وأساليبه رهن علاقةٍ ناجحة، ربما يبادر إليها قرويّ أو قروية ما في أحد الأيام. فمن الممكن كشف أسرار هذه الدار التي فُتحت أبوابها مع انتهاء الحرب الأهلية. كله جائز، فلا عداوة على وجوه ساكني هذا البيت، نساءً ورجالاً، حتى لو كانوا دائمي الانشغال بأمور لا يرى فيها القرويون أهمية عظيمة.

ما إن انقطع التيار الكهربائي وعمّ الظلام وفاحت رائحة الكولونيا، حتى اهتاج جوزيف. كأنّ الذي أخفض الهاوس من محطة التحويل، وحوّل التيار الكهربائي إلى مكان آخر من المنطقة، أرسل في طريقه شحنة من الرغبات إلى الدركي أيضاً. شعرت منال، الجالسة في حضن خطيبها، بتحجر لم

يسبق أن احتكّت به، فابتسمت بخجل. أحسّت بلذة وهيجان لكنها قمعته فوراً. فكرةُ وجودها على شرفة البيت تطمئنها. لن يقلب أحد الطاولة على رأس أحد، فهي وجوزيف في مكان مطلّ على القرية برمتها، وضوء القنديل كافٍ لحمايتها من أيّ جموح لرغبتها أو رغبة شريكها.

منال، ابنة التسع عشرة سنةً، صبية عادية جداً، تربت في عائلة محافظة كأغلب عائلات القرية. بنتٌ قنوع لم تكن بارعةً جداً في المدرسة، تحب جوزيف إلى حد بعيد وتغار عليه كثيراً. ويهمها حتى هذه اللحظة التي انقطع فيها التيار الكهربائي، أن تحافظَ على هذين السنتمترين اللذين يحفظان عذريتها. هذا خطّ رجعتها.

انتقل الشابان وجلسا على الكنبة الخضراء الوثيرة حيث تبادلا بعض القبل واللمسات. كانت هي المبادرة إلى تقبيله كالعادة. ولم يكن جوزيف يرغب في القبل كثيراً ولم يكن سعيداً بها. ثمة شعور بالضيق يغالبه عندما تقبله منال. يريد أن يذهب أبعد من ذلك معها، لعلّ هذا الشعور يتلاشى، لكن منال ليست مستعدةً بعد. صحيح أن إتمام الخطبة الرسمية يريحها، ولكن ليس بعد، ليس بعد... هي تنتظر لبس التاج الذهبي في الكنيسة لتقوم بواجبها الجنسي على أكمل وجه.

بما أنّ ذلك اليوم، يوم العرس، آتٍ لا محالة، اكتفت منال بإسقاط الحاجز الذي رسمته لجوزيف قبل اليوم، فسمحت له بلمس صدرها فقط لا غير، الأمر الذي أثار غضبه، فودّعها، وانتقل إلى غرفته ينتظر عودة التيار الكهربائي.

٤

نسمة النهر المنعشة التي تصعد عادةً إلى المركز ليلاً انقطعت كلياً. أحدهم خنق الهواء ووضعه في كيس نايلون مثل تلك الأكياس الكبيرة التي يباع فيها الخبز. بقي جوزيف طيلة الليل متيقظاً بسبب الحر، يتصبب عرقاً كالمصابين بالحمى. عند السادسة والربع صباحاً، كان يشعر بإرهاق شديد عندما تلقى اتصالاً من رجل غاضب يدعى فرنسيس، فتوجه إلى الرقيب النائم، دفعه مرتين من كتفه، ثم أبلغه حرفياً ما سمعه من المتصل الغاضب:

- سيدنا، يحلف بأنه سيقتله إذا لم نتحرك الآن.

ما بين النائم والمتيقظ سأل الرقيب:

- مَن سيقتل مَن؟

في الطريق إلى بيت فرنسيس الذي يسكن في قرية ميم ذاتها، ظهرت سحبٌ من الرمل الأحمر في الجو، وتضاءلت الرؤية. تابع الجندي مصطفى القيادة كمعتوه. انتشل علبة الدخان من جيبه وزرع سيجارة في فمه. أمره روبير الذي جلس بجانبه بأن لا يشعلها، فأجاب:

- سيدنا... لا تجنِّنْني.

ركن مصطفى السيارة تحت الكنيسة. ترجّل منها الدركيون واشتمّوا على الفور رائحة حريق نفايات قويةً آتيةً من جهة الغرب. وكان هناك مجموعة من الرجال يتناقشون مع موظف دولة، المهندس القيّم على إتمام أمور مسح العقارات والأراضي في المنطقة، وهو مسح قرّرت الدولة إنجازه مؤخراً. نظر الرقيب إلى الموظف من بعيد واستاء لأنه نفس المساح الذي مسح العقارات في قريته سابقاً. لا يذكر اسمه لكن يذكر جيداً أنه رجل دنيء منحط. لاحظ أنه ازداد بدانة وكيف لا يحمل كرشاً مثل هذا؟ إنه يتلاعب بالقرويين الأغبياء الذين يزيدونه دناءةً في بعض الأحيان، فيحاولون علفه أكثر كي يزيح لهم خطاً على خارطة عقار. يعيش على هذا النحو، يأكل في بيوت الناس، وليس في بيته علبة تونا.

دلف روبير إليه وسلم عليه، فقال له الموظف في حديث جانبي إن كل هذه الجمهرة ليست بسبب خلاف على حدود، إنما هي مشكلة تعريص يريد الجميع التحدث إليه بها فقط لأنه خرج من بيت فرنسيس للتو. كلّ ما قام به هو أنه كلم والد الشابة قليلاً كي يهدأ. ابتسم المسّاح ابتسامةً مبتذلة، ركب سيارته وفرّ بعيداً، فبدأ القرويون يغادرون كلّ في طريقه.

فبرك روبير قصةً في رأسه وأقنع نفسه بها. فكر في الاتصال بمخابرات الجيش لأنهم عادة ما يلفلفون هذا النوع من المشاكل الحساسة. يكره توريط نفسه بأشياء تتعلق بالشرف والسمعة، فهو اعتقد في بادئ الأمر أنّ هناك امرأة أو فتاة حاملاً. لا بدّ أن ماريا حامل، ثم فكّر بالنساء بشكل عام: فليفعلن ما شئن، ولكن ليتركنني بحالي! أمِن الضروري أن يحملن؟

بالنسبة لروبير، إنّ أفضل من يجيد التعامل مع الحوامل وأوضاعهن هم عناصر مخابرات الجيش. منذ سنتين زوجوا أحد مدرّسي الفيزياء من فتاة قيل إنها حملت من غيره بدايةً. كم شخصاً كان برفقتها عندما حملت؟ لا أحد يعرف حقيقةً. إن الدنيا صغيرة، ورغم أن الناس يعرفون بعضهم بعضاً فالمخابرات موجودون مثل أشباح تعيش بين الجميع، وبإمكانهم أن يجعلوا الدنيا أصغر بعد، وأن يدفنوا أسرارها عميقاً.

أضف إلى ذلك أن روبير صادف مشكلة من هذا النوع تحديداً في وقت سابق، وما كان بيده حيلة. الأعصاب تهيج والناس إن كانوا متورطين بشكل مباشر أم لا، يتحولون إلى منتقمين متوحشين عندما يتعلق الأمر بفرج امرأة. غير أن روبير يعرف في الوقت عينه أن ضابط المخابرات سيهزأ منه لو طلب مساعدته. إنه بغنى عن ذلك، فهو لا يطيق هذا الرجل أصلاً.

نادى جوزيف ليدخل معه إلى بيت الجماعة، فهذه المهمات العاطفية الحرجة تربكه، ولا يريد أن يكون وحيداً فيها. قبل أن يدلفا سوياً باتجاه البيت، وقف الرقيب عند عتبة الدار، أخذ نفساً عميقا، اِثنَيْنْ، قذف عقب سيجارته أرضاً، رتّب البيريه العسكرية جيداً على رأسه، ثم ولج البيت يحمل أوراق محضر الضبط، وهو يعرف مسبقاً أن لا حاجة إليها.

كان فرنسيس، أبو ماريا، ساخطاً وبدا أنه ختم للتو نقاشاً مشحوناً مع ابنته فُهم منه أنها لم تكن موافقةً على الاتصال برجال الشرطة. أخذ فرنسيس يردّد جملاً غير مكتملة، بحيث لم يفهم روبير وجوزيف كلّ ما قاله. صدرت عنه تعليقات وشتائم بالفرنسية بين الحين والآخر. وبّخ ابنته عدة مرات، وكانت الإبنة انزوت في غرفة أخرى بحيث كان الأب يتطاول برأسه من الباب قبل أن ينبح عليها غير مرة.

يقول إنها ستكون المرة الأولى والأخيرة التي تأتي فيها معه إلى لبنان، وإنها سوف تنسى أن لها أقارب هنا. ولكن على الرغم من حالة التوتر التي انتابته، ارتاح فرنسيس لروبير، خصوصاً وأن قرية ميم كلها، القرية المسيحية، تعرف الرقيب جيداً، وتمتدحه. شعر الأب أن بإمكانه التكلم بحرية.

لقد أبلغه أحد جيرانه منذ بضعة أيام أن شاباً غريباً عن القرية، يقود سيارة بي. أم. دبليو **320** سوداء، يتردّد إلى التنور حيث تمضي ماريا الصباحات تساعد جدتها. وقال له إنه أوصلها من التنور

إلى البيت مرتين. وأنذر الجارَ فرنسيس بأنه إذا لم يضبط الوضع، سوف تتأزم الأمور، فالسمعة السيئة سهلة المنال، خصوصاً وأن الشاب غريب ولا أحد يعرف هويته.

حاول فرنسيس لاحقاً أن يشرح بهدوءٍ طبيعة العلاقات وشروطها لابنته، فهي لا تعرف المجتمع القروي جيداً، ولا اللبناني أيضاً. ماريا شابة ولدت في فرنسا، وعاشت في عائلة فرنسية كلياً، بعد انفصال أمها عن أبيها فرنسيس عقب ولادتها بسنتين. كما أن علاقتها بأبيها متذبذبة جداً، فهو لم يكن حاضراً في حياتها إلا لفترات، لأنه لم يغفر لأمها انفصالهما عن بعضهما. منذ وقت ليس بطويل تفوّق فرنسيس على نفسه وعلى فكرة كانت تقلقه كثيراً: زيارة لبنان مع ابنته من دون أمها... فعرض على ماريا السفر إلى لبنان معه آملاً أن يوطد علاقته بها.

اكتشف سريعاً أن ابنته شابة ناضجة لا ينقصها الوعي ولا الجمال، وأنه لم يكن أبداً مستعداً لتلك المغامرة، فهي لم تعد طفلة كما ظن بداية. وعلى الرغم من أنها كانت مطيعة ومتفهمة، إلاّ أنه وجد أيضاً أنها مهووسة بالشرق وبجذورها اللبنانية، وأنها تطرح أسئلةً كثيرة جداً، فاستصعب التعامل معها رغم كونه رجلاً واسع الثقافة.

عند ماريا حب هائل للحياة والحرية، وفضول كبير لتتعرف على كل شيء يخص أبيها، على عائلته ورفاقه وماضيه، فهي عبر ذاك البحث كانت تجد شيئاً من ماضيها الضائع. وكانت تقوم بكل شيء بعفوية بالغة، بحيث أقلق الموضوع أباها فرنسيس.

تابع صاحب السيارة السوداء زياراته إلى القرية، وكان يمرّ كل مساء عدة مرات أمام بيت ماريا، الأمر الذي سبب خلافاً بينها وبين أبيها الذي اتهمها بالكذب. كان يعتقد أنها على تواصل معه. ومنذ يومين فقط، أوقف فرنسيس وجاره صاحب السيارة السوداء وأنزلاه منها عنوةً، صفعاه صفعتين ثم كسرا مرآة السيارة وزجاجها الأمامي قبل أن يوبّخاه ويطرداه. هذا ما قيل. لكن الحقيقة هي جار فرنسيس هو الذي ضرب الشاب وكسر سيارته. ولما استيقظ فرنسيس صباح اليوم على صوت أعيرة نارية، وجد زجاج سيارته مكسوراً، وكذلك مصابيحها فاتصل بمركز قوى الأمن الداخلي فوراً.

العيارات النارية هي التي أزّمت المسألة، فالوضع الأمني العام متأزم أصلاً. الحرب في سوريا تخيّم بظلالها على المنطقة وهناك خوف، خصوصاً في الوسط المسيحي، الأقلّوي في شمال البلاد، من أن تخرج الأمور عن السيطرة وأن يصل المتطرفون إلى لبنان. لقد أثارت القصة جلبة كبيرةً وتافهة، وتدخل قرويون يسألون عن سبب التخريب، وعن اسم صاحب السيارة السوداء وقبل كل شيء، عن طائفته.

قال روبير:

- طيّب... ما المطلوب مني بالضبط؟

أجاب فرنسيس منفعلاً بعض الشيء كأنّ على الرقيب أن يعرف ما العمل بطريقة بديهية:

- أمسكوه... أحكوه كلمتين. الناس تحب الحكي يا وطن... غداً سيقولون بنت فرنسيس جاءت من فرنسا لتعيش في العهر هنا، وأنا لن أقبل بهذا الكلام أبداً...

رغم الحرّ المستشري نام روبير الرقيب كالقتيل مع حلول الساعة العاشرة. خلت الساحة لأحمد ومصطفى الذي انضم إليهما جوزيف بعد أن دعواه للعشاء. بدا أحمد غير آبه لنقاش حول ما جرى صباحاً، وصبّ تركيزه على الكومبيوتر الذي وضعه في حضنه، بينما شرع يلتهم سندويشة ثالثة كأنه ناجٍ من مجاعة.

وقد يكون أحمد محقاً في لامبالاته، فأمّه، أنثى المنزل الوحيدة، ماتت من زمن بعيد، وهو لا يهوى الأحاديث المتعلقة بطبيعة النساء وغيرها من النقاشات الوجودية. مصطفى بدوره حوّل النقاش سريعاً إلى حفل تهريج:

- يا جوزيف، ماريا شرموطة، نقطة على السطر.

أضاف:

- أنت لم ترَ بعد كيف تلبس، لم ترَ شيئاً، تقبرني شو هيوجة...

قال أحمد مبالغاً:

- قسماً بالله منذ شهر وأنا آكل المناقيش في كل صباح... ما دام مصطفى في المركز لا يمكنه أن يفوّت يوماً من دون زيارة التنور... ها ها ها...

ثم سخر مضيفاً:

- الحمار في زريبة جدّي فهم أنها لا تريدك... وأنت لا زلت تفرغ نصف زجاجة العطر على نفسك قبل الذهاب إليها... ها ها ها...

أجابه مصطفى:

- أوهووو غلطان! غلطان كتير... إذا كنت تظن أنّي لا أعجبها فأنت أعمى إذن... على كل حال، سوف تثبت لك الأيام صحة كلامي.

هؤلاء الفرنسيات يحببن الرومانس!

قال جملته الأخيرة واضعاً يده اليمنى بين ساقيه، ثم قهقه وحده كأبله.

ملّ جوزيف الحديث سريعاً وأراد أن يخلد إلى النوم، فعليه أن يستيقظ بعد ساعات قليلة لنوبة الحرس. قد لا ينام بسبب الحر، لكنه سيستلقي قليلاً. شعر أن الغرفة الصغيرة المدشمة حيث جلس مع

الرفيقين ستخنقه إذا لم يخرج منها. هبّت عليها رياح ساخنة، امتزجت برائحة الثوم الذي فاح من بقايا سندويشات الطاووق إضافة إلى رائحة تعرّق أو ربما أقدام. اشمئزازه من الروائح المفرطة والقوية كاد ينسيه قول تصبحون على خير. وفيما كان يهمّ بالنزول إلى المركز وقف أحمد حاملاً كومبيوتره ثم وضعه على برميل حديدي في الزاوية. نادى جوزيف سائلاً:

- أنظر إلى هذه أبو الزوز، ما رأيك فيها؟

وأضاف:

- آخ، لو تأتي إليَّ الآن، لسوف أضاجعها حتى الفجر... ها ها...

تفل الجندي مصطفى من نافذة الدشمة، ثم سأل زميله أحمد سؤالاً أمام جوزيف الذي أضاع طرف حديثهما رغم أنه قدّر المغزى:

- أحمد، ألا تذكرك هذه الممثلة بزينة؟

- الشيخة زينة؟!! لا يا رجل!

نظر جوزيف إلى الشاشة من حيث يقف ورأى المرأة التي لها ملصق على الجدار في غرفة النوم، وهي نفسها التي رآها قبلاً على شاشة حاسوب المركز عندما حاول تنظيفه. أخذ يحدق بردفيها العريضين وجلدها الناعم، ولاحظ أنها قصيرة بعض الشيء. للوهلة الأولى بدت له ممثلة البورنو مضغوطة، وربما يعود السبب في ذلك إلى قصرها وامتلاء جسمها كما بدا من حشوات السيلوليت عند أعلى فخذيها.

انشغلت المرأة الممتلئة الجسم برجل يحرك حوضه كماكينة. أمعن جوزيف النظر ولاحظ تفاصيل صغيرة اضافية، منها بطنها الناتئ قليلاً، سرّتها حيث وضعت حلقة فضية اللون، ربلتيْها الملحمتيْن، وكعب كندرتها السوداء المروس. أراد أن يسأل عن اسمها للحظة أخرى يشاهدها فيها بهدوء، لكنه خجل قليلاً ولم يطرح السؤال. لم تتوطد علاقته بزميليْه إلى هذه الدرجة بعدُ. وعوضاً عن السؤال عن اسمها، اقترب من الشاشة قليلاً وهو يشعل سيجارته، ألقى نظرة على عنوان الموقع ونزل السلم الحديدي باتجاه غرفة النوم، ليعود بعد ساعات ثلاث، في تمام الثالثة فجراً.

كان أحمد المفترض أنها نوبة حراسته نائماً. أيقظه جوزيف فتثاءب من دون أن يضع يده أمام فمه فانفرجت شفتاه عن أسنانه وبانت صفرة قاتمة من القلح المتحجّر تغلف لثته الزهرية المترهلة. فاحت من فمه رائحة ثوم مخلوطة برائحة دخان بارد وقديم قدمَ السنوات التي مضت عليه وهو يدخن. نزل السلم الحديدي الصغير ببطء، توقف بعد درجات، وخاطب جوزيف من حيث هو. ذكّره بأن يسحب

السلم إلى فوق، وألا ينساه كما فعل هو، ثم قال له إنه ترك له الحاسوب على السطح في حال أراد أن يتسلى ثم ابتسم ماكراً. سأله جوزيف:

- أين الرقيب؟

أجاب أحمد قبل أن يختفي:

- يشخر في سابع النومات... روبير لا يحرس يا حبيبي.

قبل اندلاع الحرب في سوريا كان حاجز التفتيش يبعد خمسين متراً عن مركز اليوم. تعامل الدرك مع المهربين بطريقة منظمة، لها منطقُها الخاص وقوانينها. من المستحيل وقف التهريب كليّاً من وإلى الجهة السورية، فهذه مهنة يعمل فيها الكبير والصغير، كما يدعمها بعض سياسي المنطقة، ويعتاش منها الآلاف. وجود الدرك في تلك النقطة، كان فقط لتنظيم سير المهربين لا أكثر، ولضبط وتيرته بين الحين والآخر.

في الماضي، حصلت توقيفات كثيرة، خصوصاً تلك التي تتعلق بشحنات من المواد المتفجرة أو المخدرات وغيرها من المهلوسات وشحنات الكحول، لكن تلك التوقيفات كانت تتمّ في كبسات شهرية، كأنما هي مجرد رسائل مبطنة من جهاز الأمن لأصحاب أعمال التهريب. هكذا كانت الحياة القانونية في نقطة التفتيش الصغيرة تلك، ولكنها كانت، بطبيعة الأحوال، ذات وجه آخر، غير قانوني إطلاقاً. كان عناصر الدرك يرتشون بما يقدم لهم من هدايا مختلفة، منها شوالات الفحم، المراوح، المكيّفات، الدراجات الهوائية، حفاضات الأطفال، السكر، الطحين، علب الفياغرا وكل ما يخطر أو لا يخطر ببال. كل شيء إلا المال، فالرقيب روبير لا يمكنه غضّ النظر عن رشوة المال.

أيام الفساد المرتبة تلك، الأيام المتفق عليها انقضت إلى غير رجعة. الليالي في هذه المرحلة الهمجية سوداء ولا تمضي بسهولة. هناك خوف من فلتان الإرهاب وتمدّد رقعة الحرب، وخوف من الخطف والقذائف الطائشة. حتى أن نقطة التفتيش أزيلت من مكانها، ونزعت معها المتاريس التي ضيّقت الطريق. وتوقف الدرك عن نصب الكمائن كما كانوا يفعلون سابقاً. المهربون قلّ عددهم، فالتهريب أصبح خطيراً في الاتجاهين، ولم يبقَ من قدامى المهربين سوى القتلة والمجرمين. هؤلاء فقط استمروا يمارسون هذه المهنة القذرة قذارة الحرب في سوريا.

وعلى الرغم من كل هذه التحولات، بقي مركز قوى الأمن الداخلي في مكانه، وطوّق بعشرات الشوالات الرملية والبراميل المليئة بالحجارة حتى صار يشبه الملجأ.

في الثالثة صباحاً شعر جوزيف بتهيّج قوي. نار الرغبة في الإستمناء كانت تصعد إلى صدره بين الحين والآخر مذ كان في السرير. حاول أن يتجاهلها. تصفّح الفايسبوك على هاتفه المحمول، ثم ألهى

نفسه بفيديو سخيف لرجل يلبس جلابة بيضاء، شغل منشار حطب نزع شفرته ثم خرج به إلى باحة بيته الرملية، وصار يرفع المنشار أمامه ويقوده كمن يقود دراجة نارية، بينما يركل الرمال بقدميه الحافيتين إلى الخلف.

لم تسعفه التسلية. تعرّضت خواطره لغزوة سريعة بصورة ردفيْ الممثلة جعلته يتقلب في السرير. تشعل تلك الصور حرارةً في معدته، تبقى ثوانيَ فيشعر بها كتلة مشتعلة. وفي وحشته برّر حاله كمن يبرّر نفسه للظلام. قال إنه تقلب في نومه بسبب الحرّ لا بسبب المرأة. تساءل بعد ذلك عن زينة تساؤلاً سريعاً قبل أن تنهمر على رأسه زخة من الصور فيها منحنيات الممثلة، وحشوات السيلوليت الخفيفة في أعلى فخذيها، وخط السترينغ الأحمر الذي قسم مؤخرتها المكتنزة كقطعتين من العجين الغضّ. فرقعت الصور في رأسه، وتكسرت واحدة تلو الأخرى، لتعود مجدداً ومجدداً. تصلّب إحليله تحت بنطلون الخدمة فيما يقف وسط صحراء من الظلام الدامس الذي امتزج بغبار الرياح الخمسينية، بهتت إضاءات الشارع البعيدة. اهتاج وسط سكون لا تعكره سوى أصوات الذباب والبعوض الذي أقامه الحرّ من كل حدب وصوب.

يعلم جوزيف أن بإمكانه التفرج على المرأة مجدداً، فالكومبيوتر لا يزال على البرميل حيث تركه أحمد. الآن إن أراد، يمكنه أن يشاهدها مرة ثانية. ما عليه إلا أن يذهب إلى زرّ التاريخ على محرك البحث ليجدها. لكنه رفض اقتناص هذه الفرصة، وتمسّك بالشيء الذي يراه مناسباً وصائباً. لا يريد لهذه الشهوة الشريرة أن تتغلب عليه. ما يقوم به شرّ وخطأ، وعليه أن يقاوم شهوته إلى البورنو فهو يشاهد الكثير من هذه الأفلام في الفترة الأخيرة، وقطع على نفسه وعداً بأن يقلع عنها ما إن يبدأ خدمته الفعلية في قوى الأمن الداخلي.

أشعل سيجارة وأخذ يسحب منها متأملاً في ظلام الجهة السورية من كوّة الدشمة. لن يقع أيّ طارئ يقطع أوصال الرغبة التي تتغلغل فيه كنبتة برية متوحشة، وتنغرز في جلده انغراز حشرة القراد في كلب شريد. لن يعود أيّ فصيل مسلح إلى المنطقة ليشعل الحرب في هذا الليل ليلهيه عما يرغب فيه: مشاهدة البورنو.

شعر بألم بسيط في أذنه. حاول ترويض نفسه لكن أفكاره كلها تأخذه كلها إلى آخرة واحدة وهي مؤخرة ممثلة البورنو. ناور مجدداً. فكّر بكلام أبيه عن بناء بيتٍ وورشته، وراح يرسم في رأسه كيفما كان صوراً لبيته المستقبلي ويخلق أمكنةً ممكنة لركن سيارته الجديدة، وأخرى لنصب شجرة اللوز اليابسة التي سيوجه إليها الإضاءة ويصطاد عليها العصافير. غير أنّ كل محاولاته باءت بالفشل. كلّ

هذا هراء. الآلة الباردة الموضوعة على البرميل تناديه بشدة. إنها بمثابة مسكّن له. تقدّم منها، فتح الشاشة، وفي نهاية المطاف فكّ أزرار بنطاله.

٥

نجح جوزيف في التملص من الرقيب روبير قائلاً إن عليه أن يكون في القرية عند السابعة لأن لديه موعداً مع المهندس الذي صمم منزله ليسدّد له بدل أتعابه. قال له هذا مع أن أحداً لم يكن في انتظاره حقاً. أراد فقط الخروج من المركز في أسرع وقت ممكن لأن رأسه آلمه من أحاديث الصواريخ المجنحة والأقمار الصناعية التي يتكلم عنها روبير، خصوصاً القمر الصناعي العسكري واسمه "سفاح الفضاء"، وهو قمر تمتلكه قوات الفضاء الروسية، من مهامه تعطيل الأقمار العدوة بسلاح الذبذبات والأشعة ما دون الحمراء.

روبير شخص يعيش وحيداً وقد بلغ الخمسين منذ أشهر قليلة، وهو مقتنع بنظريات غريبة حقاً، منها ارتباط المخلوقات الفضائية بمشاكل الأرض وكتابة القرآن على يد راهب. لديه شيء من الهوس ونزعة إلى تصديق المؤامرات وعقلنة الخرافات والأساطير. لو فاتحه الناس بموضوع يكنّ له شغفاً معيناً، لما توقف عن الكلام. اليوم مثلاً، بدأ حديثه عن الأقمار الصناعية منذ الرابعة بعد الظهر.

لبس جوزيف ثيابه المدنية سريعاً، وغادر عقب وصول بعض العناصر البديلة. عند أول مفترق طرق يؤدي إلى الطريق الدولية، أوقف سيارته إلى جانب سيارة زميليْه اللذين انتظراه، وخفض صوت المسجلة حيث ردّد مغنّ شعبي بدوي في وسط أغنيته تحيات عديدة إلى أبي عصام وأبي عثمان وأبي نادر. وقال المغني بعد التحيات فرِحاً واثقاً، بلهجة بدوية حادة، إن الذي حضر حفلته هذا المساء قد حضر، أما الذي لم يحضر فأضاع على نفسه فرصة العمر.

ما كان من أحمد ومصطفى، اللذين التهيا بشرب زجاجة من الجين الإنجليزي المصبوبة داخل قنينة ماء بلاستيكية، إلا أن دعواه إلى الذهاب معهما لزيارة الشيخة زينة. كانت تلك هي المرة الثالثة التي يدعوانه فيها إلى زيارة الماخور في ظرف ثلاثة أسابيع، وكان قد رفض الذهاب سابقاً لكن المسألة شغلت باله. قال ساخراً:

- أرى أنكما تمران بزينة كل أربعاء.

أجابه مصطفى:

- لو ذهبت معنا اليوم، ستمر بها كل أربعاء وخميس هئ هئ...

يظن جوزيف أن زينة امرأة تعمل في الدعارة ويتخيلها تشبه نجمة البورنو التي وضعوا ملصقها في غرفة النوم في المركز. لكن زينة ليست أكثر من رمز يستعمله زميلاه كي يتكلما عن الماخور، أو عن

الجنس بشكل عام أو حتى عن الرقيب روبير عندما يريدان شتمه لسبب تافه. ولا يزال جوزيف يتذكر ذاك اليوم حيث أوقفت دوريتهم سيارة في القرية المجاورة، وكان فيها شاب وصديقته صودف أن اسمها زينة. يومئذ لم يستطع أحمد ضبط أعصابه، فانفجر ضاحكاً مثل معتوه خصوصاً وأن مصطفى نظر بكل جدية إلى السيدة بينما كان يحمل هويتها وقال لها:

- أنت سيدة زينة؟

فأجابت بتهذيب بالغ لاقتناعها بأنها تكلم رجل دولة:

- نعم أنا...

المهم أنه ليس هناك من امرأة اسمها زينة على الإطلاق في الماخور القريب، وجوزيف لا يزال مقتنعاً بالعكس. لقد خصّها بأهمية كبيرة منذ قارنها زميله بممثلة البورنو في ذلك اليوم الذي بدأ فيه يشاهد الأفلام في ساعات الدوام، حتى أنه نحت صورة لها ولجسمها في رأسه، علماً أنه من الممكن أيضاً أن يمثل الإسم هذا إحالة إلى امرأة أخرى، موجودة فعلاً في مكان آخر... فالله وحده يعلم كيف يمضي أحمد ومصطفى عطلتيْهما خارج الخدمة. لقد تعودا على زيارة بيوت اللذة والركض خلف المومسات كلما أتيحت لهما الفرصة.

تحضر جوزيف ملياً لهذه اللحظة، لحظة دعوة زميليه له للمرة الثالثة على التوالي لمرافقتهما إلى الماخور، ومع أنه فكّر في إعداد إجابته، إلا أنه وجد نفسه غير مستعد للإجابة فوراً، لا قبولاً ولا رفضاً.

كان لا يزال يتساءل، أيرافق زميليه إلى الماخور أم أن الله لا يرضى عن الزنى؟ إن كان الله لا يحب الزنى والزانين فكيف يجد الناس سبيلهم إلى قضاء حاجاتهم الجنسية؟ أمن المعقول أن أنتظر منال؟ ربما تكون مواقع البورنو هي السبيل الأنسب لقضاء حاجتي.

وكان هذا الجواب الأخير هو الذي قدَّم له على الدوام أفضل الأعذار ليشاهد المزيد والمزيد من البورنو في كل مرة. أضاف يفكر:

- ثم إن المسألة ليست أخلاقية فقط، فهذه ليست مجرد زيارة من أي إنسان كان. أنا دركي، أمثّل الأمن والنظام، وأعمل في سلك الدولة الآن، فماذا سيقول الناس عني لو عرفوا أني أزور المواخير؟ لا يمكن إخفاء أيّ شيء في عكار، والناس يكثرون الكلام.

في الوقت عينه يتلاعب به فضول غريب يخص الماخور، فضول يثيره ويدفعه منذ دعي أول مرة. لقد سمع سابقاً أخبار رجال القرية، خصوصاً أولئك الذين يعملون مثله على الحدود الشمالية في أجهزة الدولة الأمنية مثل الأمن العام أو الجمارك، ويعرف أنهم تعودوا على زيارة المقاصف القريبة في تلّ

كلَخ السورية لممارسة الجنس والتمتع بالنساء والفلتان، رغم أن أغلبهم متزوج ورزق بأولاد يجايلونه، ويعيش حياة مستقيمة، أو يدّعي ذلك على أقل تقدير.

كل تلك الأفكار راودته بسرعة وتدفق رهيبين، فقد مضت أيام وهو يفكر في هذه المسألة ويكرر خيط الأفكار نفسه كأنها مسبحة صلاة. أمن المعقول أن يقبل أن تنتهي حياته هكذا؟ سيتزوج منال وتنتهي مغامرته وشبابه؟ وكان يفكر كثيراً في الخيانة... أيعقل أن يخون منال بعد الزواج مثل رجال القرية؟ قد تكون خيانتها الآن أنسب لهما. قد تفيده تجربة جنسية بشيء ما.

يشعر جوزيف في هذه اللحظة أنه متأكد من حبه لمنال. ولأنه يحبها لن يطالبها بما يفوق طاقتها الآن، إنها حتى هذه اللحظة حبيبته، وهذا يعني أنه لن يطالبها بممارسة الجنس معه. هكذا تستقيم الأمور. فجأةً، شعر أنه أطال التفكير، وخاف أن يظهر ارتباكه أمام زميليه. سببت له تلك الفكرة الأخيرة حرجاً صغيراً، فقبل الدعوة.

خرجت السيارتان عن الطريق الدولية وانطلقتا في طريق زراعية فرعية تربط بين قريتين. لمح جوزيف على ضوء السيارة أزهار شجر اللوز التي زرعت على جانبيْ الطريق. قاد نزولاً باتجاه وادٍ، يتبع سيارة زميليه التي بطأت سرعتها بسبب حالة الطريق السيئة جداً، ثم عبر جسراً حجرياً صغيراً، فسمع نقيق ضفادع، وتسللت إلى السيارة رائحة النهر ممزوجة برائحة القصب والطحالب وغيرها من النبات المائي الرطب. لم يكن هناك أيّ ضوء يشير إلى حياة بشرية في الوادي.

بعد عبور الجسر بأمتار قليلة انعطف أحمد بسيارته إلى اليمين، وسلك طريقاً ترابية ضيقة جداً ومتعرجة، فتبعه جوزيف فيما بدأ ينتابه شعور بالحيرة والخوف. لا مجال للتراجع الآن. قاد سيارته بين شجيرات الوزال العبية منصتاً إلى صوت المحرك وصوت صرّارات الليل، إلى أن وصل إلى باحة بيت صغير محاط بأشجار كينا يافعة على مدخله ضوء بنفسجي يشبه لون مصائد البعوض الصينية الصنع التي تغزو الأسواق.

يتألف البيت من طابق أرضي وعلى سطحه غرفة واحدة أنيرت بضوء أصفر باهت. بدا أن البيت بني حديثاً وعلى وجه السرعة. لم تكن جدرانه مطلية إنما اكتفى أصحابه بتوريقها بالإسمنت وكان هناك ستفتان من بلوكات الباطون وضعتا أمام المدخل. في الباحة الأمامية للبيت رُكن بيك - أب تويوتا أحمر اللون من طراز قديم جداً، وأوقفت بجانبه سيارة مرسيدس، حديثة نسبياً، لا تحمل لوحة تسجيل. وامتلأت الأرض أمام المنزل بالنفايات، وكان بياض المناديل يبدو للعيان بالرغم من ظلام الليل الذي خيّم على المكان.

فور ترجلهم من السيارتين قال أحمد لجوزيف إنه من الأفضل ألا يقول اسمه الحقيقي لو سأله أحد

عنه وأضاف:

- لا تقلق، لن يسألوك شيئاً... صاروا يعرفوننا جيداً.

أجرى أحمد اتصالاً سريعاً بسيدة وقال لها إنهم وصلوا، ولكن رجلاً عجوزاً يلبس أسمال فلاح رثة وكوفية حمراء فتح الباب الحديدي الأسود الذي يطل على الباحة. من المرجح أنه سمع هدير المحركين ونهض يتأكد من القادمين. وحدّق العجوز صاحب اللحية البيضاء الخفيفة بالدركيين الثلاثة ثم توارى عن الأنظار بعد أن ناداه صوت امرأة من الداخل.

دخل الدركيون البيت ووقفوا في أول الردهة الضيقة التي تطل على غرفة الجلوس والمطبخ الذي فاحت منه رائحة كشك مغلي قوية. بعد ثوان دلف نحوهم قط أبرش سمين بالكاد يجر نفسه، يموء مواءً متقطعاً وعميقاً، ثم ظهرت خلفه امرأة محجبة، سمينة بعض الشيء، كثيرة التبرج، تلبس عباءة فضفاضة بنية اللون لمعت فيها خطوط ذهبية عمودية. بابتسامة مشرقة نظرت إلى جوزيف وكلمت زميليْه بلهجة سورية:

- أرى أنكما أحضرتما صديقاً اليوم.

رد أحمد الإبتسامة وأراد أن يجيبها لكن السيدة اعتذرت منه لأن طنجرة الكشك على النار وهي لا تريد حرق طبختها، فاستعجلت تنهي خدمتها. توجهت نحو منضدة خشبيّة في آخر الردهة وعادت تحمل موبايلها الذي كانت تشحنه هناك، ثم فتحته وأخذت تعرض صور النساء المتوافرات في الماخور أمام جوزيف كي يختار واحدة تروق له.

عرضت عليه ثلاث صور، اثنتان منها لسيدتين تبلغ كلفة خدمتهما أربعين ألف ليرة لبنانية، وواحدة، بدت أصغر سنّاً بستين ألف ليرة. أراد جوزيف أن يسأل زميليْه إن كانت تلك هي الشيخة زينة، ولكن لحسن حظه أحرجه وجود المضيفة. تركه أحمد ومصطفى بكل لياقة يختار المرأة التي تعجبه.

عندما اختار وأراد أن يتكلم سُمعت خبطة باب قوية من جهة السلم الداخلي المؤدي إلى السطح ثم ظهرت سيدة يقدر من يراها أنها في أواخر ثلاثينياتها، شعرها كستنائي اللون عقدته بقلم رصاص على أعلى رأسها ولبست بنطال جينز ضيقاً فاتح اللون وقميصاً أبيض من الساتان. كانت السيدة حسنة المظهر، لم تخفِ جواهرها، سلسلة ذهبية ناعمة في عنقها تدلت منها قلادة صغيرة رُصعت بحجر كريم، وفي يديها أساوِر وساعة.

نزلت السيدة السلم سريعاً، وأول ما لاحظه الدركيون كان صدرها المترجرج وهي تنزل الدرج. توجهت نحو الردهة بخطى كبيرة وعصبية، متجاهلةً الدركيين الذين تجمدوا يحدقون فيها. ربما تكون

هي الشيخة زينة قال جوزيف في نفسه. لقد فاحت باقترابها رائحة عطر نبيلة طغت على رائحة الكِشْك التي تفشّت في أرجاء البيت. لم تكن بحاجة لأكثر من بضع خطوات لتبهر الجميع بجمالها وقوامها الدقيق والمتناسق، وبعينيْها البنيتيْن الواسعتيْن.

بعد ثوان فقط ظهر مجدَّداً العجوز الذي فتح الباب قبل قليل راكضاً خلفها وقد بدا عليه الغضب بدوره. عدا بأقصى سرعته حتى وصل إلى الباب الحديدي قبلها، وفتحه أمامها كما يفتح الخادم باباً أمام سيده، ثم رافقها إلى الخارج وهو يغمغم كلاماً لم يُفهم منه شيء.

بدا أنه يعاتبها لأنها لم تطلب منه أن يخدمها، أو لأنها تتحرك كثيراً من دون أن تحيطه علماً. وكان العجوز يطالب المرأة بتغطية رأسها من دون أن يُفهم أكثر ما يقوله... ثم تابع غمغمته في الباحة إلى أن استدارت عند وصولها إلى سيارة المرسيدس المركونة في الباحة. قالت له بشيء من الغضب بلهجة سورية قاطعة كالسكين:

- مو معقول يا حاج... لا يمكنني أن أخرج ثانية وحدي!

أجاب العجوز محرجاً:

- يا ست ليلى، يا ست ليلى، أصبري علينا قليلاً الله يخلّيكِ...

فتحت ليلى باب السيارة بعصبية وتناولت منها شاحناً أبيض اللون وحاسوباً صغيراً، أغلقت الباب بعنف مطلقةً من دون سبب سبّة على الرب، فرفع العجوز يديه إلى السماء مستغفراً. عادت السيدة إلى الداخل فهرول العجوز متتبعاً خطاها كأنه ظلها. في الردهة صرخت به قائلةً إنها صارت داخل البيت وإن بإمكانه العودة إلى الصالون وتركها، فهزّ برأسه آسفاً كأنما هناك أمر، أو وضع معيّن لا تعيه ليلى تماماً، أو تسيء تقديره بأحسن الأحوال. توجه العجوز إلى غرفة الجلوس وفي نظرته إليها مزيج من القلق والعتاب.

في الردهة رمقت ليلى جوزيف بنظرة سريعة جعلت قلبه يخفق خفقاناً قويا. بعد ذلك سألت المضيفة صاحبة العباءة البنية بصوت خافت يكاد لا يسمع، إن كان معها سجائر. أمسكتها الأخيرة من معصمها وابتعدت بها خطوتين نحو باب المطبخ وخاطبتها هامسةً فسمع الدركيون بعض الكلام:

- هناك على الطاولة... خذي العلبة كلها وعودي إلى فوق... لا نريد مشاكل، الله يوفقك يا ليلى، الله يخليكِ... اليوم سبت، وستصل حثالة البشر بعد قليل وأنت تعرفين أن أبو محمود لن تسعده رؤيتك هنا على الإطلاق...

صوت ليلى هذه رائع. إنه مكسور بعض الشيء، دافئ فيه بحة خفيفة، يتناسب مع قدها وجمالها. بدت هذه المرأة لجوزيف من أكثر مخلوقات الأرض إثارة فلمعت فكرة عميقة في رأسه. هذه المرأة

تشبه بجسمها وفتنتها أولئك النساء القليلات شبه الكاملات، اللاتي اخترن لسببٍ أو لآخر أن يصبحن ممثلات بورنو أو عارضات أو راقصات... يا الله... أليس هذا حظاً ضائعاً؟

استمر جوزيف بعد ذلك يحدق فيها بنظرات ثابتة وشرهة. ليس وجهها على درجة كبيرة من الجمال حتى لو أنها ذات عينين بنّيتين كبيرتين. لكنها قنبلة إثارة. نعم إنها قنبلة وليست صاروخاً كمثل ذلك الذي تكلم عنه روبير طيلة النهار.

لكن مهلاً، ماذا تفعل امرأة تُسمَّى الست ليلى في ماخور بائس حقير مثل هذا يا ترى؟ المنزل لم تُطلَ جدرانه الداخلية وحتى أنها لم تورق بالإسمنت، والنفايات مكدسة حوله. تساءل جوزيف إن كانت ليلى مومساً للأثرياء فقط، وفكّر بقلادتها الذهبية وأساورها، لكنه نسي الفكرة سريعاً. إنه لا يرغب في أن تكون هكذا. أصلاً أيّ أثرياء هناك في عكار؟ الأثرياء تركوا عكار. لا تبدو عليها هيئة المومس أبداً. وكيف تكون هيئة مومس الأثرياء أصلاً؟

قال جوزيف في نفسه إنه ربما يكون وجوده في هذا المكان هو الذي ينفخ فيه ريح التهيج وهذه الأفكار المضطربة ويجعله يعتقد بنهاية جنسية لكل شيء. لقد أثارت رؤيته ليلى تساؤلاتٍ كثيرةً عنده، وهو لاحظ أن أحمد ومصطفى يتبادلان النظرات ويتبسمان كشقيّين. راقت له المرأة كثيراً. راقت له كما لم ترق له امرأة منذ مدة. غير أن المضيفة لم تترك له مجالاً للتفكير أكثر، فذكّرته بأن عندها طبخة كشك على النار، وسألته مجدداً عن خياره، فاختار سريعاً خدمة إحدى مومسات الأربعين ألف ليرة.

تقدم الجميع إلى غرفة الجلوس حيث جلس رجلان على ديوان عتيق بلون نبيذي، أحدهما هو العجوز نفسه الذي هرع خلف ليلى الأنيقة منذ قليل. بدا أنه استعاد شيئاً من هدوئه وهو يدخن النرجيلة. وكان هناك ملتح آخر أربعيني ذو نظرة عدائية جداً، يلبس بنطالاً عسكرياً وحذاء رياضة بلون أحمر فاقع، يجلس بجانب العجوز يشاهد نشرة إخبارية على التلفزيون. بدت عيناه إلى الشاشة، لكن أفكاره في مكان آخر. ألقى أحمد ومصطفى السلام على الرجلين بكل كياسة، وقام جوزيف بالمثل مقدّراً أن الرجلين قد يكونان حارسيْ الماخور.

اجتازوا غرفة الجلوس ودخلوا ردهة أخرى معتمة أكثر، ومضت المضيفة بكل دركي إلى غرفة السيدة التي اختارها. دخل جوزيف ووجد امرأة تجلس عارية في السرير. فور رؤيتها، لاحظ ذلك الفارق العظيم بينها في الواقع وبين صورتها على الموبايل. الصورة أفضل بكثير ومن غير المستبعد أن يكون أحدهم قد حسّنها على الفوتوشوب. فالمرأة الجالسة على السرير نحيلة بعض الشيء، جسمها مترهل بشرتها مائلة إلى الصفار، تفتقر إلى النضارة والحيوية.

دلّته على مغسلة في زاوية الغرفة وأشارت عليه بالإغتسال قليلاً، قبل أن يبدآ، ثم أفهمته شروطها بكل وضوح وقالت إنها لن تمص عضوه إلا إذا دفع مبلغاً إضافياً قدره عشرون ألف ليرة، كما أنها ستطرده لو حاول مضاجعتها من مؤخرتها:

- إن كنت تريد أن تضاجع من الوراء، فما لك إلا سعيدة.

- مَن سعيدة؟

- التي تأخذ ستين ألف ليرة!

وافق جوزيف على شروط السيدة، ومن لهجتها أدرك فورا أنّ الماخور يعج بالسوريات، فهذه هي المرأة الثالثة التي تتكلم باللهجة السورية بعد المضيفة وليلى، وحتى الآن وحده الفلاح العجوز تكلم باللبنانية.

وفيما كان جوزيف نائماً معها بدأ يسمع صرير سرير جاره وتأوهات المرأة الضئلية برفقته. لم يعرف إن كان أحمد أم مصطفى. سمع بعد ذلك صوت التلفاز يعلو تدريجياً، ونشرة إخبارية آتية من جهة الصالون. البيت صغير، والغرفة حيث يوجد الدركيون كانت مقسَّمة بألواح خشبية طليت بالأبيض، وفي الواقع كانوا هم الثلاثة في غرفة واحدة من دون أن يدروا. تشتّت تركيزه قليلاً، ولمع سؤال في فكره عمّا إذا لم يكن من الأسهل له أن يستمني بنفسه، فاللذة سهلة المنال. ثم وجد نفسه يحدق في تفاصيل صغيرة في جسم المرأة، وانتبهت هي إلى ذلك. فسألته بشيء من المرح:

- أوّل مرة؟

- لا أبداً...

لقد أقام جوزيف علاقاتٍ قبل اليوم، ولكنها تعد على أصابع اليد الواحدة. فأثناء متابعة دورته التدريبية في مخيم ضبية، زار مرتين ماخوراً في منطقة المعاملتين. وكان الماخوران يعجّان بالسوريات، لكنه في المرتين اختار أجنبيتين. ويعتبر جوزيف إحدى التجربتين سيئة جداً، ويتحاشى حتى الآن التكلم عنها فهي شكلت له عقدة. لقد قذف سريعاً على ثياب الأوكرانية في الماخور، وخرج بعد دقائق قليلة بعد أن صرخت فيه. شعوره بالخزي والعار لا زال يعاوده كلما تذكر ذلك اليوم، ثم يتذكر بعد ذلك، بطريقة لا شعورية، الخمسين دولاراً التي ذهبت هدراً.

في زيارته الثانية لذاك الماخور شعر أن الجنس في الخيال أشدّ إثارةً بكثير منه في الواقع. إنما الآن، وأكثر من المرات السابقة، يشعر أن رغبته لا تُلبّى كما كان يتوقع. إنه يرى في جسم المومس تفاصيل قبيحة، لا يراها أبداً في تلك الأجسام التي يشاهدها على مواقع البورنو في كل يوم، وتضايق من ذلك.

هذا الجسم الذي بين يديه يتعرق سريعاً، أضف أن فيه وبراً وشعراً، وأظافر يدين وقدمين، لم تبرَد

وتُطلَ كما يجب. إنه يراه أوسخ بأضعاف من الأجسام التي تعود مشاهدتها.

ولم يعرف جوزيف، فيما كان يجامع المرأة، كيف تذكر فيلم البورنو الذي شاهده البارحة، فراحت صوره تتوالى في رأسه. فكر بإمكانية معاملتها بقسوة وضربها على مؤخرتها وإذلالها كما فعل الممثل بالممثلة. كل ما يريده هو رفع مستوى اللعبة ليزيد من الإثارة. إن المومس هذه مجرد عاهرة كما يقول له عقله في هذه اللحظة، فلم لا يعاملها بالعنف الذي يرغب فيه؟ المرأة التي تبيع شرفها بأربعين ألف ليرة تستحق أكثر من ذلك. تستحق كل طاقاته الحيوانية وأسوأ ما فيه. إنه يرغب في تقليد ما يشاهده كلّ يوم لمدة ساعات، وها هو يمسك بها من خصرها، ثم يطلب منها أن تركع على السرير ويستدير خلفها، ويواصل ممارسة الجنس معها حتى بلغ ذروة نشوته.

٦

عاد نجيب من الورشة عند العاشرة صباحاً. كان قد قضى ليلته في البيت الجديد. ركن سيارته كيفما اتفق في باحة الدار، وتوجه فوراً ليستحم من دون أن يرمي السلام على أحد. نادته هدى وسألته إن بدأوا بالعمل في السطح، ثم سألته ماذا نسي كي ينزل باكراً على غير عادته ولكنه لم يجب. خرج بعد عشر دقائق من الحمام وتوجه إلى المطبخ حيث انهمكت هي مع منال وأخت منال يُحضرن بعض الطعام لعمال الورشة. استدعاها بصوت جدي، ودلف بها نحو غرفة الجلوس، لكنه توقف في أكثر الأمكنة ظلاماً في الردهة، كأنه تعمد اختيار تلك النقطة تحديداً ليتوقف فيها ويكلمها.

قال خائفاً:

- يا هدى... أظن أني جربان. لم أتوقف عن الحك طيلة الليلة الماضية ولم أهدأ طيلة الصباح في الورشة...

قالت له مستغربة:

- جربان؟ إيه! قِرد! كيف أصبت بالجرب؟

أحسَّ نجيب أن زوجته ستفقده صوابه لو طرحت عليه سؤالاً آخر من هذا النوع. فلا هو متأكد من أنه جربان، ولا هو يملك جواباً عن سؤال من هذا النوع. إنها مجرد شكوك، وهو لا يشعر بشيء سوى برغبة جامحة بحك خصيتيه وتحت إبطيه، لدرجة أنه فقد ما عنده من صبر قصير أصلاً، ومعه جزءاً من قدرته على التواصل مع الآخرين. رمقها بغضب وفكّر أنه من الأفضل أن يختفي من أمامها، لئلا تسأله سؤالاً آخر، فيبدأ بنطح الجدران لكثرة ما يرغب بحك جسمه بقوة. لن تفيده زوجته بشيء أصلاً، وكانت تلك فكرة خرقاء أن يشكوَ أمره إليها. استدار سريعاً، ثم تناول محفظته عن منضدة التلفزيون وهرول خارجاً لرؤية الطبيب.

فيما هو في طريقه إلى الطبيب، أخذ يفكر في ما يمكن أن يفعله الطبيب من أجله. معروف عن الجرب أنه صعب، ومعروف عن الطبيب أنه طبيب الفقراء. إنه من أولئك الأطباء الذين غالباً ما يطمئنون مرضاهم ويعدونهم سلفاً بألم سيدوم يومين أو ثلاثة أو حتى أسبوعاً، مفضلين ذلك على عشرات الوصفات الطبية وكذا كشفية. يشاع أنه يكره رؤية المريض نفسه مرتين في السنة ذاتها، ويحاول قدر المستطاع ألا يطيل وقت الفحص والعلاج، ويقلل من الأدوية إن كان باستطاعته ذلك،

فهو يكره الكيميائيات كأنه لم يدرس نفس الطب الذي درسه الجميع، ويفضل حضّ الناس على أكل العسل والليمون وكل ما هو طبيعي.

إن لهذا الطبيب فلسفة يمكن إطالة الكلام عنها والتعلم منها، لكن الناس لا يعونها جيداً وهم معذورون في ذلك لأن ما يرونه ليس على هذا القدر من السلبية مهما كان مضحكاً. يرون أنه طبيب الفقراء الذي يفضل العلاج البسيط والذي يتقاضى عشرة آلاف ليرة بدل معاينته بعكس الآخرين، وهم يعتقدون أنه يحقن مرضاه بالإبرة نفسها مهما كانت أمراضهم. للزكام عنده إبرة، وللصداع إبرة، ولآلام البطن والأذنين إبرة أيضاً، وخلاصة المشكلة أن هذه الإبرة هي نفسها لأنه يسحبها من نفس الدرج في كل مرة، كما أن المكان الذي تزرع فيه هو أيضاً نفسه؛ المؤخرة. لذا كان بعض خفاف الظل يعارضون المثل الشعبي ويقولون إن الدكتور حنا دخّل طز بمرحبا، نظراً لطريقته في معالجة مرضاه.

وبينما كان نجيب يفكر في تلك التفاصيل التي كانت تعدّ تافهةً بالنسبة إليه حتى صباح الأمس، قبل شعوره بأول حكّة ملحّة تحت إبطه الأيسر، التقى بابنه عائداً من الخدمة على بعد مئات الأمتار من القرية. غير أن نجيب الذي أحسَّ بأن جسمه يخرج عن سيطرته لشدة الحكة، لم يرَ ابنه ولم يحيِّه. لقد مر بجانبه كالثور مخلفاً وراءه غيمة غبار أبيض. لم يكن الزفت، الذي قيل إنه سيعبد الطريق فور مرور جرافة المشروع الأخضر، قد وصل بعد.

أسرع جوزيف إلى البيت ليستوضح عن أبيه الذي أقلقه بمروره السريع، ونسي في تلك اللحظة أنه يملك هاتفاً وأنه يمكن أن يهاتفه. لكن على كلّ رنّ الهاتف وكان المتصل الرقيب روبير. قال الرقيب إن ذاك الشاب الذي أثار موجة من الغضب في قرية ميم المجاورة للمركز، نفسه الشاب صاحب البي. أم. دبليو السوداء الذي أطلق النار منذ شهر تقريباً على سيارة المغترب فرنسيس، عاد يحوم حول الشابة الفرنسية التي أتت تقضي عطلتها، وأشار إلى أن شباب القرية ينوون ضربه إذا لم تقم قوى الأمن بواجبها. أضاف أنه تلقى اتصالاً من والد الشابة ترجّاه فيه مرة أخيرة أن يحلّ المسألة، وأنه فكر ملياً في الأمر وقرّر أن يتصرف. قال جوزيف:

- أنا على كل حال سأحل مكان مصطفى الليلة... عنده عرس في طرابلس، وسأداوم بدله كما تعرف.

كان روبير قد نسي أنه وقّع شخصياً على مأذونية مصطفى، وكان يهمه أن يرافقه جوزيف لا دركيّ آخر بسبب ما تفرضه الحالة. قال بفرح:

- ممتاز... ربما يرزقك الله بواحدة تبعدك عن هذا البلد الخرائي.

أقفل جوزيف الخط بعد أن تواعد مع روبير على الإلتقاء في الثامنة مساء، ثم دلف إلى البيت ليسأل عن حالة أبيه وينام. كان النعاس يهدّه شيئاً فشيئاً، وكان يشعر بألم في أذنه. إنه ألم عميق، يلامس طبلة الأذن، ويسبب له صداعاً خفيفاً.

ينتابه ذلك الألم المستمرّ في حالتين فقط، عندما يحتاج إلى مسكّنه، أي إلى مشاهدة أفلام البورنو والإستمناء، أو حينما يشاهد كثيراً ويستمني أكثر من مرة في وقت قليل، فيرهق نفسه. لا يعرف أنّ ذلك الألم بمثابة نداء من جسمه المُستهلَك، بمثابة تعبير. انزعج جداً عندما أُعلم أن عليه أن يحمل الطعام إلى العمال في الورشة. كانت منال وأختها، وحتى هدى، يغرقن في الضحك، فتعتريهن سعادة ما بعدها سعادة كلما تذكرن أن نجيب نال منه الجرب.

طلب جوزيف من أمه إنهاء تحضير الأكل سريعاً كي يوصله ويعود إلى السرير. وطلبت منال، التي لفته من خصره بذراعيها ملتصقةً به، أن ترافقه لرؤية الورشة، خصوصاً وأنها علمت أن العمال بدأوا بصب سطح الطابق الثاني وأن جدران الطابق الأرضي ستنتهي بعد أسبوعين على الأكثر. ثم إن هناك غرفةً جاهزة، وهي الغرفة التي ينام فيها نجيب أحياناً. لقد جهّز شبابيكها واشترى لها باباً حديدياً، ووضع فيها سريراً للنوم. بودّها أن تراها. إن هذه الورشة قائمة لتشييد بيتها في نهاية المطاف، وهي ترغب في مواكبة تطور العمار، وبأخذ بعض صور السيلفي أمام البيت لتضعها على فيسبوك لاحقاً. رفض جوزيف رفضاً جذرياً وقال:

- هل تجدين أن وقفتك بين العمال الغرباء لائقة؟

اِنزعي هذه الفكرة السخيفة من رأسك.

في الثامنة مساء وصل روبير بسيارته الخاصة، فركب جوزيف بجانبه واتجها إلى قرية ميم حيث منزل ماريا الفرنسية. كان روبير يأخذ الأمر على محمل الجد، وعن حقّ، بالرغم من نوبات الهلوسة التي تنتابه دائماً، والنظريات الخنفشارية التي يرددها كلّما أتيحت له الفرصة. فوالد ماريا أخبر شباب القرية بما يحصل، وقد أشيعَ خبر، لم يتسنّ للناس التأكد منه، مفاده أن الشاب الذي يلاحق الفرنسية كلما خرجت من البيت هو شاب مسلمٌ، وهذا أمر لم يتحمله أحد في القرية، ولذلك باتت المشكلة الآن مفتوحة على جميع الاحتمالات.

ولج الإثنان قرية ميم وتقدما فيها ببطء في اتجاه الطريق الدولية. وبعد اجتياز ساحة الكنيسة ركن روبير السيارة تحت شجرة صفصاف زرعت في حوض حجري أبيض، خالف لونه لون الحجارة البركانية السوداء التي بنيت بها البيوت المطلة على الساحة.

تناول روبير من خلف كرسيه صندوق بيرة تركية فيه ست قنانٍ من تنك، وكيس مكسّرات، وكيس

آخر فارغ للنفايات.

شربا البيرة قنينة تلو الأخرى وهما يدخنان ويتكلمان عن أشياء تافهة وأخرى قيّمة، ويراقبان الساحة الخالية التي لم تعبرها سوى القطط المشردة التي تقفز آتية من خلف سور طويل أحاط بأحد البيوت المطلة على الساحة. بعد نصف ساعة تقريباً بدأ الإثنان بتأثير الكحول يشعران بلذة خفيفة وطرب روبير فبدأ يُدندِن:

- غيابك طال وبستنى قلبك...

بعدها ران صمت بسيط فغرق كل منهما في أفكاره الخاصة. كان جوزيف يفكر في ليلى. زجاجة واحدة، ويصبح التفكير في ليلى أحلى: يا الله كم أنها مثيرة. كيف سأحظى بليلة معها؟ لو تسنى لي هذا الأمر لمارست الجنس معها عشرين مرة في ليلة واحدة.

أما الرقيب روبير فكان لا يزال غارقاً في آخر أفكاره تدور به في الفلك مع القمر الصناعي الذي أطلقته قوات الفضاء الجوية الروسية حالماً أنه يصطاد الأقمار الأخرى، فيصبح العالم بلا أمريكا وبالتالي بلا إرهابيين. استمرت لحظات الهدوء، واستمر الإثنان ينصتان إلى حفيف أغصان الصفصافة على زجاج السيارة وغطاء محركها وسقفها، إلى أن خطر لجوزيف أن يسأل سؤالاً:

- من يحرس الليلة؟

أثّرت البيرة التركية على روبير حقاً، فأجاب ماكراً:

- الله حامينا.

فانفجر الإثنان يضحكان كالمجانين.

بقيا جالسين في السيارة إلى أن رأيا صبية شقراء تتقدم بجانب السور الذي قفزت القطط من خلفه. فضحك الإثنان للفكرة الغبية نفسها وهي المقارنة بين القطة التي ينظران إليها الآن والقطط التي عبرت السور من قبل، لكنهما لم يتفوّها بأي كلمة. سرعان ما ظهرت سيارة سوداء خلف الصبية متقدمة ببطء شديد وراحت تقترب من السور شيئاً فشيئاً حتى بات من الصعب على الشابة التقدم وسائق البي. أم. دبليو يقطع عليها الطريق بين الحين والآخر فيحاصرها بين السيارة والسور ويمازحها بسماجة. التفتت إليه ثم طرقت بيمناها مرتين على سقف السيارة صارخة بالفرنسية:

- ماذا تريد مني؟ ماذا تريد مني؟ أنت غبي فعلاً... إرحل!

أدرك جوزيف وروبير فوراً أنها ماريا. رمى روبير البيرة من الشباك ناسياً كيس النفايات، أدار محرك سيارته وانطلق مسرعاً وقطع الطريق أمام السيارة السوداء. قفز جوزيف وهجم مدخلاً رأسه

ويديه من نافذة السائق من دون أن يمسّ به بل اكتفى بإطفاء سيارته وسحب المفاتيح منها وطلب منه الترجل فنزل الأخير مرتعداً.

اكتشف روبير بعد إلقاء نظرة على أوراق الشاب، أنه دركي أيضاً. قال فيما هو ينظر إلى جوزيف:

- عظيم... تربح معنا معوّقاً آخر في السلك.

انشغل روبير بتدوين المعلومات المتعلقة بالشاب مجبراً على الانتظار وقوفاً، واستغل هذه الدقائق القليلة جيداً ليسخر منه ببرودة ويهدده في الوقت نفسه. تسلى به قليلاً والشاب خائف مرتعد يعتذر تارة، ويقول طوراً إنه متيّم بماريا. قال له الرقيب متكلفاً الرصانة:

- نعَم نعم أعرف أنك مغروم... أقدّر طموحاتك العالمية...

أضاف:

- الكسّ البلدي لا يرضي خاطرك حتماً...

وبعد أن نال ما ناله من إهانات وبعد أن هدده جوزيف بالعميد الأفيوني، أقسم صاحب البي. أم. دبليو يميناً أنه لن يعود إلى القرية ثم غادر. شعرت ماريا بالأمان بوصول الدرك، وهي عرفت روبير سريعاً. يبدو أنها لمحته في المرة السابقة عندما زار بيتها. عبّرت عن اضطرابها الذي كبتته أمام المتحرّش قائلةً:

- الأحمق... كان ينتظرني خلف الكنيسة منذ ساعات... إنه مجنون حقاً!

تبادل روبير وجوزيف النظرات. ماريا لا تتكلم اللبنانية بطلاقة لكنها تفهمها جيداً، وهذا ما أراح الدركييْن بعد مرور دقائق، فهما اعتقدا في بادئ الأمر أن عليهما التكلم معها بالفرنسية فأربكهما الأمر قليلاً.

تمعّن جوزيف بها جيداً. لا تبدو عاهرة كما قال زميله مصطفى. حتى لو كانت تلبس سروال جينز قصيراً، فهذا لا يعني أنها عاهرة. إنها رقيقة، وإلا فلمَ هي مضطربة هكذا؟ كان ثملاً بعض الشيء. فكّر على عجل أن مصطفى يرى البشر صنفين، ذكوراً وعاهرات. حاول أن يكلمها، ومع أنه تعلم الفرنسية لسنوات طويلة في المدرسة إلا أنه وجد صعوبة في التعبير.

عندما استدار نحر روبير الذي عاد وجلس وراء مقود السيارة ليشكو إليه عدم طلاقته بالفرنسية، رأت الفتاة سلاحه المعلق على ظهره، فارتعدت مرة جديدة.

بعد أن استعادت شيئاً من هدوئها، شكرتهما ثم أبلغتهما أنها تفهم العربية جيداً. سألت جوزيف إن كان عليها القيام بشيء ما قبل أن تعود إلى بيتها. كانت تخاطبه بطريقة رسمية جداً، السيد العميل، **Monsieur l’agent**. سألها روبير إن كانت تريد التقدم بشكوى ضد الجحش على حدّ تعبيره، فلم

تفهم ما معنى كلمة شكوى ولم تفهم تعبيره الوصفي كذلك. استعان روبير بترجمان غوغل، ومع أنه كتب "شكوة" بدل شكوى إلا أنه حصل على الترجمة، لكنه أبدى استغراباً واضحاً، ثم توجه بالسؤال إلى جوزيف مهجئاً الكلمة بالفرنسية:

- بيه... أل...أ...إي...أن....تيه... يا جوزيف، كلمة بلانت ألا تعني نبتة؟!

بعد جهد بسيط أفهماها أنه يحق لها رفع شكوى، لكنها رفضت الفكرة، فهي لا تريد المزيد من المشاكل. قالت:

- إنه مجرد غبي... يجب فقط نسيانه.

ابتسم لها جوزيف، فابتسمت له. في عينيها لمعة جميلة أعجبته. استردت بريقاً حجبه خوفها. عرض جوزيف عليها مرافقتها إلى البيت، فقالت إنها وصلت. مشت مسرعة إلى جانب السور، فأخذ يتأمل وركيها وفخذيها. شيء ما، عدا طول قامتها وشعرها الطويل الأشقر المجعد الخصلات، شيء ما أفرحه، لا بل أمتعه. شعر بسعادة غير مفهومة لأنه كلمها. عاد بسرعة إلى السيارة، أخذ قصاصة ورق، دوّن عليه فوق غطاء المحرك رقم هاتف المركز وبجانبه رقمه الخاص، ولحق بها.

أعطاها الورقة قائلاً:

- من الثلاثاء إلى الجمعة أنا في المركز. لا تترددي في الإتصال بالشباب أو بي إذا واجهت أيّ متاعب جديدة.

٧

حضّر جوزيف فنجان نيسكافيه "ثلاثة بواحد"، أضاف إليه ملعقة كبيرة من السكر، أخذ منقوشة وبدأ يلتهمها، ثم توجه من المطبخ إلى غرفته. في الردهة التقى بأمه تحمل سلةً كبيرة من الغسيل، سألها بسخرية عن الجربان، قاصداً بذلك نجيب الذي تبيّن قبل أسبوع أنه مصاب بالجرب فعلاً. ابتسمت هدى رغم أنها سئمت الموضوع ولم يعد يضحكها كما في الأيام الأولى. لم تغسل يوماً الثياب والأغطية كما فعلت في الفترة الأخيرة. إنها أشغال شاقة أضف إلى ذلك أن نجيب، رغم تحسّن حالته قليلاً قد أنهكه المرض فعلاً بسبب قلّة النوم خصوصاً.

أطلق جوزيف ريحاً قوياً فيما كان يتحدث إليها، فانهالت عليه بالصراخ. قالت له معاتبةً:

- إنك منذ الصباح في غرفتك... ألا تملّ من اللعب؟ ثم ألم تقل إنك ستساعد أبو ربيع في فكّ الصوبيا؟ الله يساعده ما عنده إلا النسوان... من يساعده في ذلك؟

أجابها ساخراً وفمه محشو بلقمة كبيرة من المنقوشة:

- لماذا ننزع الصوبيا من مكانها إن كنا سنركبها من جديد في بداية الشتاء المقبل؟ ألم يكن المرحوم جدّي يرى في تقديم الساعة وتأخيرها مضيعة للوقت؟ الأمر نفسه ينطبق على الموقد...

دخل غرفته وأقفل الباب ثم جلس أمام الكومبيوتر. خرج من لعبته المفضلة "كال أوف ديوتي" بعد أربع ساعات من اللعب المتواصل، وفتح الفايسبوك. بحث عن ماريا الفرنسية على الموقع، ثم نظر إلى الفايبر ليرى إن كانت أضافت رقمه إلى هاتفها لكنه لم يجدها. تذكّر ليلى فجأة ثم بحث عنها وكان يعرف مسبقاً أنه كمَن يبحث عن إبرة في كومة قش.

اتصلت به منال فردّ عليها لكنه تحايل عليها ليقفل الخط بأسرع وقت ممكن. أراد صرفها عنه كيفما اتفق. لم ينتبه إلى أنه في الآونة الأخيرة يقوم بهذا الأمر مراراً وتكراراً، وأنه ليس قادراً على تحملها أكثر من دقيقتين في أيّ اتصال بينهما. وعندما تكون بجانبه لا يبادر يوماً إلى تدليلها أو تمسيد شعرها كما تحب. لا بل أكثر من ذلك يشعر برغبة قوية في الابتعاد عنها، وكان نفوره منها يعذب الإثنين، هو خصوصاً، لأنه لم يدرك أن ذلك النفور المقرون بنوع من الفظاظة تجاه كل حركة حميمة تبدر منها مردّه بالدرجة الأولى إلى إدمانه على البورنو.

قبل أن يقفل الخط شعرت منال بأنه يتهرب منها، غضبت منه لكنه نجح في تفادي الخصام. اكتفى بتذكيرها بسهرة الغد في المطعم وأخبرها بأن روبير تولى مسألة الحجز، ثم قال لها إنه سيستحم. وفيما

هو يطفئ هاتفه تذكّر أن عليه أن يضع كلمة سر له، ثم بدأ يتصفح على الكومبيوتر بروفايلات يعرفها جيداً.

يتبع جوزيف على الإنترنت دورة واضحة غالباً ما تنتهي به إلى موقع بورنو. كل الدروب تؤدي إلى... البورنو. هذا ملاذه الوحيد في شهواته. هذه الدورة الروتينية تدفع به إلى الإستمناء كل يوم ثلاث مرات على الأقل. يستمني حتى يفرغ نفسه كليا، ولكن التهيّج الأسود لا يفلته. حتى بعد الإستمناء، تبقى بعض الصور في رأسه. وهو، للإنجرار إلى هذه اللعبة المرهقة لا يحتاج إلى أكثر من بروفايل على فايسبوك أو إلى رابط سخيف فيه صورة تستثيره.

يطغى على بروفايلات النساء التي يزور مواقعها دوماً طابع اصطناعي وذوق خاص في اللباس. أغلبهن كثيرات التبرج، أثداؤهن كبيرة وأحياناً ضخمة إلى حدّ القرف، ويفتقدن جمال الوجه. كما أنّ أغلبهن تجاوزن الخامسة والثلاثين من العمر. لسن جميعاً صديقاته على الفايسبوك، إنما يعرضهن عليه نظام تجديد البحث ما إن يكبس على الخانة المطلوبة. في الماضي أضاف منهن عدّة نساء لكنه في الفترة الأخيرة صار يكتفي بالتلصص من دون أن يضيفهن إلى قائمة الأسماء خوفاً من أن ترى منال ذلك، فهي على الفايسبوك أيضاً.

نظر إلى عشرات الصور وبدأ يتخيل نساءها مباحاتٍ له. إنه يبرَع في نسج الأفلام في رأسه. أثاره فخذان بيضاوان لامرأة جلست على دراجة نارية من تلك الدراجات التي تستعمل في حلبات السباق. تمنى لو تتعرى أمامه. رغب في مجامعتها من مؤخرتها التي ظهر خيط الستريتغ الأسود أعلاها والتي تهيأ له أنها لا تشوبها أيّ حبة أو بثرة. يرغب بلعق جسمها متخيلاً أنه يعرف التعرق. أراد هذه المرأة تحديداً، وأراد أن يضخ الحياة في صورتها كي تتحرك وتنفذ رغباته.

ازداد هيجانه فتناول علبة المناديل التي قدموها له مجاناً في محطة "أبو فيصل للمحروقات" وشعر بضرورة رفع السقف، فقرر مشاهدة الفيديوهات. يريد أن يرى الأجسام تتحرك، فصورة المرأة على الدراجة النارية لا تكفيه. يريد عرياً لكنه على وجه الخصوص يرغب في رؤية عرض تعرٍ. انتقل إلى موقع يوتيوب. أذكى يوتيوب هيجانه وسرعان ما لاحظ أنّ اليوتيوب مضبوط، العري والتعري منظمان على الموقع، وهو لا يريد أي ضوابط الآن. تماماً كما أهمل الصورة الجامدة للمرأة التي تركب على الدراجة على الفايسبوك منذ قليل، ها هو الآن يهمل يوتيوب ويتجه إلى موقع للبورنو. هنا، أي على هذا الموقع، يعاوده شعور غريب اختبره سابقاً.

فيما هو يحدق في الشريط الذي اختاره هيجه وضع معين اتخذه الممثلان. هذه ليست المرة الأولى التي يؤثر فيها عليه أحد مشاهد الشريط. ثمة مشهد معين، دائماً، لا يكون نفسه في كل مرة، يثيره أكثر

من غيره. يشعله. والمشهد الذي هيجه هذه المرة قوي جداً، لدرجة أنه شعر بتحجر في خصيتيه. الفيديو كله لا يعنيه بدون هذا المشهد. أعاده غير مرة.

بعد ثلاث إعادات متتالية للمشهد نفسه كرر البحث فيه حتى وجد صورة. وضعية. أوقف مشاهدة الفيديو عندها. فجأة رغب بصورة واحدة، جامدة مع أنه تركها منذ قليل على الفايسبوك عندما أراد مشاهدة الفيديو. إنه يدور في حلقة مفرغة من شهوات لا سلطة له عليها. تابع استمناءه بوتيرة أقوى. هذه هي المرة الرابعة التي يستمني فيها اليوم. فعل ذلك فجراً في المركز فيما كان يشاهد البورنو على كومبيوتر زميله في الدشمة، ثم فعلها مرة ثانية عند التاسعة فور عودته من التنور، فهو كان قد مر بالتنّور آملاً أن يلتقي بماريا، فلم يجد سوى الجدة التي قالت له إن ماريا فضلت أخذ قسط من الراحة. ثم قام بذلك مرة ثالثة بعد الغداء فوراً.

الغريب أن الصورة التي وجدها جوزيف في المشهد لم تكن ''هاردكور'' إطلاقاً، نسبة لما يمكن أن يجده في الموقع، أو حتى في الشريط نفسه. ومن دون أي يعي حذف منها الرجل أولاً، وبقيت المرأة فيها وحيدة. كانت تنام على ظهرها على سجادة سميكة من الفرو. الصورة التقطت من حضنها بحيث ظهر طرف ثدييها من تحت. هذا الخط المقوس كان أكثر ما هيجه، إضافة إلى أنه اختلق أوجه شبه بينها وبين ليلى السورية، وهذا ما دفعه بالدرجة الأولى إلى اختيار ذاك الفيديو تحديداً.

أغلق جوزيف صفحة الموقع، نظّف سريعاً تاريخ المواقع التي زارها على محرك البحث. شقّ باب غرفته كاللص فلم يرَ أحداً في الردهة. حمل المناديل المتسخة، تسلل بها إلى المرحاض، ورماها في المرحاض وفتح المياه عليها. ثم خلع ثيابه وأخذ حماماً. لم يرد أن يترك أيّ أثر لما قام به. في اعتقاده تنظف المياه كل شيء...

عند السابعة والنصف مساءً تلقى اتصالاً من رقم مجهول. كانت ماريا هي المتصلة وعرفها مباشرة من عربيتها المكسّرة. حاولت أن تكلمه باللبنانية من دون أن تستعين بأي مفردات فرنسية، وأدرك جوزيف أن بينها وبين آخرين تحدّياً أو شرطاً حول تمكنها من التكلم باللبنانية من دون الاستعانة بالفرنسية. وكان جوزيف الذي فاجأه الإتصال في بداية الأمر يسمعها تضحك بين الفينة والأخرى، وتتكلم مع مجموعة من الأشخاص بالفرنسية مطالبة إياهم بالصمت، وكان يسمع ضحكاً قوياً على خلفية صوت المغنية اللبنانية صباح وعرفها من أغنيتها ''ألو بيروت ألو بيروت''.

فهم منها أنها دعته إلى العشاء، غير أنه لم يفهم متى موعد الدعوة إلى أن تكلم مباشرة مع أبيها الذي بدا له في مزاج ممتاز:

- هل تأتي كي تتعشى معنا يا جوزيف؟ فتشت في المنطقة من شمالها إلى جنوبها لكي أجد لحاماً

يبيع الخنزير!

لم يكن جوزيف في وارد الخروج من البيت قبل تلقيه الاتصال. يفضل البقاء في عزلته ومتابعة لعبته المفضلة التي وصل فيها إلى مرحلة متقدمة. كل ما عليه الآن هو قنص الحراس الصينيين الذين تمركزوا عند باب المعسكر من أجل الدخول إلى غرفة العمليات السرية وسرقة الملفات وإرسالها إلى البنتاغون. لكنه لسبب ما، لعلّه ماريا، ترك الجبل الصيني المثلج حيث المخيم، لبس ثيابه سريعاً، نظف أسنانه ووضع القليل من الجيل على شعره، ثم خرج. قاد سيارته ومرّ بجانب بيت منال التي رأته يغادر القرية عبر النافذة فاتصلت به عدة مرات دون جدوى.

أحسّ جوزيف عند وصوله إلى بيت جدة ماريا أنه شخص مُحترم بعض الشيء. الجدة وهي سيدة نحيلة وقصيرة لا يبلغ طولها أكثر من متر وخمسين سنتيمتراً، تتميز بحركة سريعة ونشاط مدهشين، رحبت به ترحيباً حاراً، فتركت جرن الثوم الخشبي فور رؤيته، وأقبلت نحوه طالبة منه الانحناء كي تقبله.

جلس إلى المائدة يراقب ماريا بطرف عينيه وهي تتحدث إلى أصدقاء أبيها، وراقته طريقة وقوفها. تبدو مرتاحةً واثقةً من نفسها. أما فرنسيس فقال له فور وصوله إنه أراد رؤيته مرة ثانية لأنه سيخجل من نفسه لو عاد إلى فرنسا من دون أن يلتقيا مجدداً.

اعترف له أن صاحب السيارة السوداء جعله يخرج عن طوره، وأنه ليس ذاك المجنون الذي رآه يزعق في ذلك اليوم. وقال فرنسيس أيضاً من دون أي حرج إنه سعيد لرؤيته في بيته لأنه ليس لماريا الكثير من الأصدقاء هنا:

- حاولت في غير مرة أن تمضي وقتها مع الصبايا هنا، ولكنها مختلفة كثيراً عنهن... أعتقد أنها لا تفهمهن ولا هنَّ يفهمنها. تقول إنهن مشغولات بالأزياء والأجهزة الخلوية، وإنها لم تجد ما تحدثهن به... أعتقد أنها تراهنّ سطحياتٍ جداً...

تلفّت فرنسيس يميناً ويساراً ثم أضاف خافضاً صوته:

- ما حدا غريب يعني... هن بنات عمومتها...

سرعان ما انجلى الخجل عن جوزيف وشعر بالراحة. تذوق كأساً من زجاجة الويسكي التي اشتراها فرنسيس أثناء زيارة قام بها إلى اسكتلندا. وكان أخبره عندما رآها، أنه لم يرَ من هذا الصنف في السوق المحلية، ففتحها فرنسيس على شرفه وقدم له كأساً، ثم صبّ آخرَ لنفسه. أخذ فرنسيس يرتشف من الكأس بتأنٍّ ويصف الويسكي، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يستمع فيها جوزيف أحدهم يقدم وصفاً للخمر بهذه الدقة:

- هذا ويسكي عمره ستّ عشرة سنة يا جوزيف... فيه أنواع من التوت البري، وقليل من التوابل ونكهة أزهار أيضاً. أما طعم الخشب... أنت تحس به، لا؟ قد يكون ناتجاً إما عن... وتاه عنه مرادف كلمة **la tourbe** بالعربية، قبل أن يتذكره فجأةً... آه نعم، عن الجفت... إنهم يدخنون الجفت بالتأكيد... أو لا... قد يكون ذلك بسبب البراميل التي خمِّر فيها الويسكي.

ثم أضاف بشيءٍ من التأثر البالغ:

- براميل للتخمير من خشب الدالية! دالية! مع أنه في اسكتلندا ليس هناك حبة عنب واحدة يا صديقي!

هدأ قليلاً ثم تابع:

- لا أدري لمَ تأثرت عندما علمت بذلك... ربما لأن الدالية قيّمة جداً بالنسبة إلينا نحن... على كل حال إذا تسنى لك أن تزور أوروبا فلا تتردّد، خصوصاً إن كنت تحب الكأس... بين النبيذ الفرنسي والبيرة البلجيكية وما نشربه الآن ستكون سعيداً جداً. أنا نفسي لم أكن أحب الخمر كثيراً قبل سفري.

قال جوزيف ساخراً:

- علينا إرسال الرقيب روبير إلى اسكتلندا بأسرع وقت ها ها ها... إنه يقضي على قنينة ويسكي كل سبت وأحد.

أجاب فرنسيس متحمساً:

- أعرف ذلك، سمعت بعض السفاسف... هنا في القرية قالوا لي عندما بدأ ذاك الأرعن يحوم حول ماريا... قالوا لي خذ قنينة لروبير وهو سيتكفل بالباقي. سيرسله إلى القطب الشمالي كرمى لعينيْك... لكني خجلت من ذلك... آه بالمناسبة... لقد دعوته أيضاً هذا المساء، لكنه اعتذر. لماذا برأيك؟ أتراه يعاني كثيراً بسبب الشرب؟

- لا لا لا... كن مطمئناً... إنه مجرد شخص رقيق يتأثر كثيراً بكلام الناس.

كان جميع أفراد العائلة سعداء برؤية ماريا تقف خارجاً برفقة جوزيف يدخنان السجائر ويقلّبان قطع لحم الخنزير التي علاها دخان أبيض كثيف. لم يرغب أحد بمقاطعتهما البتة، لا بل إن جميع الحاضرين نسوا وجودهما سريعاً، والتهوا يستمعون إلى حكايات سفر فرنسيس الطويلة ومغامراته في بلاد بعيدة جداً منها الكونغو وفنلندا. وكان الحكواتي نفسه يترك الحديث بين الفينة والأخرى، ثم يخرج مهرولاً إلى الباحة حيث وضع المنقل، يلقي نظرةً على أسياخ اللحم ويقلّبها، كأنما به يشك في قدرة ابنته ووجوزيف على شوائها كما يجب.

يخرج حاملاً زجاجة الويسكي فيملأ كأس جوزيف وكأس ابنته، ويعود فوراً لمتابعة سرد مغامراته.

تلك التصرفات على بساطتها وتفاهتها، إضافةً إلى إحساس جوزيف أنه في بلاد أخرى بسبب سماعه اللغة الفرنسية، كل ذلك كان بمثابة نفس جديد بالنسبة له. ومع مضي الدقائق ازداد ثقةً بنفسه، وبدأ يهمل الأخطاء التي يرتكبها عندما يتكلم بالفرنسية.

يحدق جوزيف في وجه ماريا بغبطة. وجه يتميز بفكّ مربّع قليلاً وعينين زرقاوين وفم عريض ووجنتين زاهيتين. تعجبه حقاً. أكثر ما يسحره فيها ثقتها وهدوؤها. تنمّ نبرتها الموزونة عن طبع هادئ سويّ. تبدو ماريا في تناغم تامٍ مع نفسها. لا بد أنها تقدّر جمالها وتعطيه القيمة التي يستحقها.

لبست أرقى وأفخم ما لديها لهذا المساء. فستان خفيف من الحرير بلون فيروزيّ غامق يتناسب مع شقار شعرها ذي الخصلات المعقودة والعبيّة، ووضعت في أذنيها حلقتين تدلت ياقوتتان صغيرتان منهما، وقليلاً من أحمر الشفاه. كانت بسمتها تتسع كلما شعرت بنظراته، فيشع وجهها ويشرق وتبرق في عينيها لعبة سحر وإغراء.

قالت ماريا من دون تكلّف إنها تشعر بالملل في القرية، خصوصاً في فترة ما بعد الظهر. تمضي صباحاتها في التنور لكنها تعلمت كل ما يمكن أن يتعلمه المرء، وصارت تبرع بتحضير العجينة، وتعلمت كيفية تشعيل التنور وتحميته أيضاً. لم يعرف جوزيف بما يجيبها، لكنه شعر في مكان ما بأن من واجبه أن يطرح عليها بعض الحلول. قال وليس في باله أية أفكار مبيتة:

- أنا أيضاً ينتابني الملل بين الحين والآخر... هذه منطقة ريفية... لكن هناك بعض الأمكنة التي تستحق الزيارة... هل زرت جبل القموعة؟ هناك محمية جميلة...

- لا... أنت تتخيل خوف أبي. إنه يذكرني دائماً بأني شقراء وعينيّ زرقاوان! لا يمكنني أن أتنقل وحدي أبداً...

- الجبل ليس بعيداً من هنا... الرؤية من فوق مكشوفة... يمكنك أن تري بوضوح بحيرة حمص وقلعة الحصن والبحر أيضاً...

لم تتردّد ماريا في الطلب منه أن يصطحبها في زيارة إلى القموعة وكان من المستحيل عليها أن تلفظ حرف العين، فضحكا كثيراً بسبب هذا الأمر. قالت له إن الجبال قد تكون خير وجهة لهما، خصوصاً وأنها تملك منظاراً ممتازاً. لقد اشترته خصيصاً لتراقب الطيور الجارحة في المنطقة، فهذه هوايتها الأحب إلى قلبها. ذهل جوزيف عند سماعها وشعر بخجل كون الصيد يشكل أحد هواياته الرئيسة. استأذنت منه دقيقةً ودلفت إلى البيت ثم خرجت تحمل دليلاً فرنسياً عن الطيور. فتحت الكتيّب وراحت تشير إلى أنواع الجوارح التي رأتها في قرية ميم، وبلغ عددها ستة.

ازداد جوزيف ذهولاً. خالفها الرأي قائلاً إنه ليس هناك في فصل الربيع سوى نوع أو اثنين على

الأكثر من الجوارح. تجادلا قليلاً قبل أن يتلقى اتصالاً من المركز. اعتذر من ماريا وابتعد عنها متمشيّاً وهو يحكي على الهاتف. أبلغه الزميل الذي اتصل به أن خطيبته منال اتصلت تسأل عنه وأنها قلقة. كان ثملاً بعض الشيء. طمأن زميله ونظر إلى الساعة ثم عاد إلى الداخل وجلس إلى المائدة.

جلسا معاً إلى مائدة واحدة للمرة الثانية خلال أربع وعشرين ساعة، وذلك في مطعم افتتحه مؤخراً رجل يلقب بـ **53**، يعيش وحيداً في جبل القموعة. بني المطعم من أحجار الجبل الكلسية البيضاء وهو يشرف على الفج العميق حيث ترامت البلدات والقرى. لم يكن في المطعم سوى زوجين آخرين، فالناس يقصدونه عادة في عطلة نهاية الأسبوع فقط، أما اليوم فيوم الجمعة والعكاكرة الذين يعملون في بيروت وطرابلس لم يعودوا بعد.

لا تجد ماريا حرجاً في إلقائها بعض النظرات على النساء الأخريات، ولاحظ جوزيف أنها تراقب السيدة الأخرى بطرف عينها. كانا خجولين قليلاً مما جرى بينهما صباح اليوم. كأنّ الأشياء حصلت على غفلة منهما. ثمة سعادة كبيرة بادية على وجهها بينما بدا هو تائهاً قليلاً. ولم يفت ماريا ذلك إذ أنها شعرت باستيائه الواضح عندما مارسا الجنس، وقدرت أن الأمر عائد لقلة خبرته. نوت طرحَ بعض الأسئلة عليه، ولكنها أجلت المهمة حتى اللّقاء المقبل.

حمل **53** إليهما صحنيْن فخاريين من الأرز باللحم، وفيما هو عائد إلى المطبخ استغل جوزيف الفرصة ليلقي نظرة على قدمي الرجل كي يرى إن كان لقبه مبرراً كما سمع سابقاً، وهكذا كان حقاً. إن لقب **53** الذي أطلقه أصدقاء على صاحب المطعم مستوحىً من مقاس حذائه.

قالت ماريا ممازحة:

- أرز باللحم؟ هذا هو طبق العشاق؟ أنت مدين لي باعتذار!

ضحكا ثم أكلا من دون أن يكثرا الكلام. اكتفيا بتبادل بعض الإبتسامات التي تخفي وراءها الكثير من الأفكار. وعندما رنّ هاتف جوزيف وقرأ اسم منال على شاشته أطفأه من دون تردّد.

ينفخ جوزيف الساخن والبارد. من جهة أولى لم يرد النزول من الجبل بتاتاً. يريد أن يبقى برفقتها. كل ما حوله حرّ. هذا الجمال البري القاسي في المرتفعات حيث الهواء لافح ونقي، يجعله يستصعب العودة إلى الوادي. هنا الهواء أنظف تمتلئ الرئتان به. ثمة قلق عميق لديه لا يستطيع التعبير عنه لأنه لا يدرك حقاً ماهيته. من جهة ثانية يريد الهروب من أمام ماريا لأنه يشعر بإرهاق شديد، ولأنّ نزوعاً جنسياً جارفاً يستولي عليه بين الحين والآخر فيرغب في الإنقضاض عليها مجدداً ومعاملتها كأنها كائن محدود، قطعة لحم، كائن ولد ليلبي رغباته الجنسية فقط.

غير أنّ هذا يتعارض مع مشاعره الطيبة تجاهها.

فجأةً، راوده تساؤل جديّ ولّد لديه حالة من الهم والخوف: ماذا ستقول لو علمت أني خاطب؟ ثم عارض نفسه: وما همّي أصلاً؟! ليست هذه غلطتي... لقد قبلتْ بممارسة الجنس معي ونحن لا نعرف بعضنا إلا من أربع وعشرين ساعة... هه!

ثم لمع في فكره سؤال آخر أزعجه كثيراً:

- هه إنني أرمي عليها كل الذنب منذ الآن... ما الفارق إذن بيني وبين مصطفى الذي يقول عنها عاهرة؟

لاحظت ماريا أنه شارد الذهن وقد توقّف عن الأكل وتنبّه هو إلى ذلك. حاول أن يهرب من أفكاره فبادر سائلاً من دون تفكير:

- هل تتذكرين مصطفى، مصطفى الدركي؟...

- وكيف لا! إنه يأتي إلى التنور في كل صباح... ما به؟

- كيف تجدينه؟

- مصطفى ليس من نوع الرجال الذي قد يعجبني... ما هذا السؤال الغريب؟ لمَ تسأل عنه؟

شعر جوزيف بشيء من السعادة فغيّر الموضوع فوراً:

- ومتى تسافرين؟

- تبقى لي أسبوعان تقريباً... لكني بالتأكيد سوف أعود. هل تتذكر ما قلته لك يوم أمس؟ أدرس الترجمة ولا بدّ أن أعود من أجل دورات لغوية... ثم إني لا أعتقد أنه من الممكن العيش من دون المائدة اللبنانية بعد اليوم!

بدأ جوزيف يفكر في عودتها منذ الآن. انشغل باله لكنها قاطعته مازحةً:

- أم لعلك لا تتذكر شيئاً من يوم أمس لأنك كنت ثملاً؟

- ومن منا لم يكن ثملاً آه؟ أبوك أجبرني على النوم على الكنبة لشدة ثمالتي... وقبلت بذلك طبعاً! لم يستطع فرض ذلك على صديقه الذي غادر وهو يمشي متمايلاً... لكنه حجزني أنا! وها إنّي لم أفارقك لحظةً واحدة منذ يوم أمس.

- وهل أنت سعيد بهذا الأمر؟

- إيه إيه... أكيد... لكن يجب ألا نتأخر أكثر، فلديّ بعض الأعمال.

سألت ماريا بنبرة موزونة:

- هل ستتصل بي؟

انفعل جوزيف بعض الشيء من دون سبب:

- ما هذا الذي تقولينه ؟ طبعاً سأتصل بك... لدينا الوقت، لدينا الوقت.

٨

سُحِق كلب من فصيلة الكانيش يملكه جار جوزيف، وهو رجل ضخم جداً يتساءل المرء كيف يقتني كلباً من هذه الفصيلة بالذات، تحت عجلات سيارة جارةٍ أخرى وخرجت أحشاؤه. المشهد مقزز فعلاً. ترجلت الجارة الأنيقة من سيارتها مروعة بما حصل، ولما رأت الكلب مسحوقاً تحت العجلة الأمامية اليمنى، والدماء تملأ الأرض، انتابها دوار وتقيأت على الفور. وسمع الجار صاحب الكلب صوت فرامل السيارة القوي فدفع بقوة مصراعيْن خشبيين أخضرين لنافذة في الطابق الثاني من منزله، كأنما به استشعر المصيبة، وألقى نظرة إلى تحت، إلى الزقاق الضيق، ثم راح يصرخ كالمجنون.

على الفور تجمهر بعض الأهالي في المكان، وصاحب الكلب يسحبه بتأنّ من تحت عجلة السيارة، ويشتم من دون توقف السائقة التي فتحت باب سيارتها وجلست وراء المقود ورجلاها إلى الطريق، تمسك بطنها من شدة ما تقيأت. ماع الكحل على عينيها وقد احمرّتا، وهي تغمغم أمام نسوة أتينها بالماء والملح كي لا تفقد وعيها.

كانت منهارةً عاجزةً عن الاعتذار بنفسها فطلبت منهنّ أن يعتذرن عنها لصاحب الكلب، وأن يقلن له إنها مستعدة لتلبي كلّ طلباته. وحاولت النسوة أن يهدئن من روع الرجل الذي أخذ يندب كما لو أنه أمام فقيد غالٍ:

- يا ضيعانك يا برنْس، أحلى كلب في العالم... يا ضيعانك يا ضيعانك...

فات صاحب الكلب أن برنس، صاحب الأربعة عشر عاماً، فقد بصره منذ شهرين تقريباً. وعندما ذكر أحد الرجال المتحلقين في المكان بصوت عالٍ أن برنس أعمى، وأنه رآه في غير مرة يعبر الطريق أمام السيارات مرتمياً أمامها جنَّ جنون المالك معتبراً أن في قوله إهانةً شخصية له. وفجأة تطور الحادث البسيط وتحوّل إلى صراع بين الجيران إذ تدخّل بعض الموجودين ليصبَّ، كل مهنم، نوعية زيته الخاص على النار.

كان موت الكلب فاتحةً لمشادّة طويلة ومشاكل كثيرة بدا أنها بُيّتت حتى الآن. هكذا دشنت أمعاء الكلب جولة جديدة من خلاف يتعلق بحدود أرض حاكورة بين هذا وذاك وطريق زراعية قطعها هذا عن ذاك. وبعد أن استرجعت المرأة شيئاً من قواها استمعت لشتائم الجار، فقامت بدورها تصرخ بوجهه وتشتمه واللعاب يتطاير من فمها.

بدأ ذلك المشهد عند وصول جوزيف الذي سمعها تقول:

- كلكم في العائلة حيوانات... أنا أكيدة أني قتلت أفهم واحد فيكم! يا ليتك كنت أنت تحت السيارة يا بغل!

فور سماعه كلمة قتيل، أمسك جوزيف أحد الواقفين من كتفه ليستعلم منه عن المشكلة، وهو رجل متفرج كان يدخن سيجارة، مسنداً ظهره على الحائط، متابعاً المعمعة كمن يتابع مباراة كرة قدم. قال الرجل لجوزيف ببلادة:

- برنس، برنس، الله يرحمه.

هجم صاحب الكلب على المرأة، فركضت تهرب منه وتدور حول السيارة، وركض رجال آخرون وأمسكوا بالرجل. تدخل جوزيف. دامت المعمعة دقيقة وشعر جوزيف بيد تمسك به من مرفقه وتسحبه إلى الخلف. كانت تلك يد منال التي جرّته إلى بيتها جراً، كما يجر أب ابنه ليعاقبه. حاول التملص منها لكنها كانت شديدة الإضطراب والغضب، فهددته بافتعال فضيحة وبالصراخ وسط الشارع إذا لم يرافقها فوراً كي تكلّمه.

لم يكن هناك أحد في البيت. جلس جوزيف على الكنبة الوثيرة، أشعل سيجارة، ثم أخذ يحدق بأوسمة والدها العسكرية المعلّقة على الجدار، وبصورة له مع زوجته التقطت يوم عرسهما. تأمّل أثاث الصالون الذي طغى عليه اللون الذهبي، وستائر النوافذ الخضراء وحاول قدر المستطاع أن يتجنب التقاء عينيه بعينيْ منال التي رفضت الجلوس قبل أن تستمع إليه. طلبت منه أن يخبرها، بالتفصيل، أين أمضى ليلته أمس، ولماذا تجاهل اتصالاتها ورسائلها، ثم كتفت ذراعيها بانتظار إجابته.

قال جوزيف بعفوية مذهلة:

- ما بك يا منال، طلبوني من المركز وكُـ...

- كذّاب! اتصلت بالمركز!

كانت منال مقتنعة أن جوزيف يخونها، وأرادت أن تقتنص اللحظة المناسبة لكي تبدأ التركيز على هذه المفردة بالذات لأنها تعتقد أنها قد تؤثر فيه أكثر من غيرها. إنها متيقنة من أنه يقيم علاقة ما، بدأت منذ فترة طويلة لا منذ أمس، وهذه قناعة معروفة الأسباب. جوزيف من جهته يعرف ذلك بينه وبين نفسه خصوصاً وأنه عاد للتو من بين أحضان ماريا. أجابها مهاجماً:

- أعرف هذا! اتصلتِ يا ست منال بالمركز مع أنك تعلمين جيداً أني أكره هذا الأمر. لكن ما دمت تتذاكين، فدعيني أخبرك إذن أنني لم أكن مطلوباً للخدمة، إنما طلبت في مهمة خاصة. وإن كنت لا تصدقينني بسبب غيرتك الهستيرية، فسأجلب لك ورقة أمر المهمة إن طلبت. لا أريد أن أسمع كلمة واحدة عن هذا الموضوع!

فرح بردّه لأنه وجده قوياً، واعتقد أنه استطاع التملص من المشكلة. فكر أنه من المناسب أن ينهض ويمشي على الفور، فيظهر لها شيئاً من الاستخفاف واللامبالاة. وكادت خطته أن تتحقق، لولا مروره بجانبها متجهاً إلى الخارج، فشمَّت رائحة عليه، رائحة عطر غريبة:

- رائحة نسوان!

صرخت في نفسها كأنها أمسكته بالجرم المشهود.

في تلك اللحظة بالذات، وإذ أوشكت أن تنقض عليه لتشمّ عنقه وثيابه كما يفعل كلب صيد يتعقب حجلاً، دخل أبوها أيوب خافضاً رأسه كثور مهدراً عليها فرصة صيد ثمين.

قال أيوب وقد رأى جوزيف يغادر:

- إجلس يا جوزيف... لم أشرب قهوة بعد... لعن الله تلك الساعة التي سرّحت فيها من الجيش، كنت أرسل أحدهم إلى دوائر الدولة لإنجاز المعاملات... تخيّل أن وجه البوم التي تعمل عند مأمور النفوس، روزان... أنت تعرفها... روزان النحيلة السوداء... وجه عزرائيل لا أحد غيرها... تخيل أنها لم تعد ترضى بخمسة آلاف ليرة من أجل إنجاز إخراج قيد... صارت تريد عشرة وعشرين... أفففففف يا بنت الستين كلب أفففففف.

أضاف محدقاً في منال:

- منال يا بابا، ما بك تقفين هكذا مصبّرة؟... ضعي الركوة على النار يلا يلا... والله حاسس رأسي سينفجر كلما تأخرت عن موعد القهوة...

تذكر جوزيف أنه سيمضي سهرة اليوم في مطعم قريب برفقة منال والرقيب روبير، المبادر إلى الدعوة، فقال لأحمد إنه سيحاول الانضمام إليه في الماخور في وقت لاحق. وكان جوزيف يتمنى لو بمقدوره إلغاء الحجز في المطعم، لا للذهاب إلى الماخور أو للقاء ماريا، إنما لتفادي منال، فهو يعلم تمام العلم أن القضية لم تقفل بعد.

تمدّد قليلاً قبل أن يصل الرقيب روبير في أول المساء. كان بأبهى حلته. يلبس قميصاً أبيض عليه نقوش سوداء عريضة ورقم 7 على ظهره. لمع الجيل على رأسه وقد بدا أنه صرف وقتاً على تصفيف شعره. وكان ينتعل حذاء "غو ويست"، بلون بني فاتح وزخرفات دقيقة، وبنطال جينز أزرق ضارباً إلى البياض. قابله جوزيف عند المرآب ولاحظ أنه أتى بسيارة الشرطة جيب الـ"جي. أم. سي".

أخبره فوراً أن نجيب لن يقبل بذهابهما إلى المطعم قبل أن ينضما إلى المائدة في البيت. سأل روبير متعجباً:

- ولماذا دفعنا ثلاثين دولاراً إن كنا سوف نجترُّ هنا؟!

جلس روبير ونجيب وجوزيف إلى المائدة قبل أن تُعَدّ يشربون العرق ويأكلون الفستق. روى روبير ما حصل اليوم:

- هل سمعتم إطلاق نار عند الواحدة بعد الظهر، هنا هنا... قبالة مزارع الدجاج بين قرية ميم وقرية راء؟...

هزّ نجيب رأسه إيجاباً، بينما تذكر جوزيف أنه كان لا يزال في الجبل مع ماريا في ذلك الوقت، فصمت وراح يفكر فيها منفصلاً تدريجياً عن الحوار. بحسب أقوال الرقيب هناك مجموعة مسلحة اشتبكت مع دورية لمخابرات الجيش يبدو أنهم كانوا يلاحقونهم، ولم يتمكن الجيش من أسر أو قتل أي من المعتدين، ولكن عنصراً أصيب إصابة بالغة. انتفض نجيب سائلاً:

- من أصيب؟ إبن الخوري في المخابرات... يعمل هنا في المنطقة

- لا لا... المسكين من القرية الفلانية، وليس من جماعتنا... الله يصبر أهله... يشاع أن حالته حرجة.

- أصيب في صدره يعني؟

- لا والله يا أبو جوزيف... أصيب في مؤخرته! بصراحة، يمكننا أن نمزح قدر ما شئنا، لكن هذه الإصابة صعبة جداً...

- إيه شو لكن... لن يستطيع أن يجلس مرتاحاً بعد اليوم.

شرب الرقيب أول قدح من العرق، ثم أبدى تحفظاً مهذباً على كلام نجيب الذي قدر أنهم إرهابيون سوريون. لدى روبير قناعة تقول إن المهاجمين مجموعة من المهربين. يعتقد أنهم تجار أعضاء بشرية. لقد سمع كلاماً بهذا الشأن سابقاً، وأمضى فترة ما بعد الظهر يقرأ على الإنترنت أخباراً ومقالات في مواقع غريبة عجيبة، تقول إن خطوط تهريب الأعضاء صارت معروفة، وثمة دول أجنبية كثيرة، منها الصين وبلاد أوروبية ليس فيها نسبة ولادات مرتفعة، تستورد الأعضاء البشرية المهربة من سوريا.

غير أنه لم يستعجل في إثارة هذا الموضوع:

- كانوا في شاحنة يا أبو جوزيف... وكان بإمكانهم الفرار صوب النهر في الحرجة. أنت تعرف الأحراج هناك... لكنهم أخذوا الشاحنة تحت وابل من نيران المخابرات... أتراها مهمة إلى هذه الدرجة بالنسبة لهم؟

- لا أفهم ماذا تريد قوله يا روبير... هل كان فيها سلاح يعني؟

تكلم روبير بصوت خافت جداً أخرج جوزيف من شروده. أنهى قدح العرق الثاني برشفة واحدة، وضعه على الطاولة ثم حكى من دون أن يعبر عن أفكاره بشكل واضح:

- وجدوا ثلاجة فارغة في مكان الاشتباك... يا أبو جوزيف، ألا تجد في الأمر غرابة؟! يعني... تجد الثلاجة في المطبخ، في السوبرماركت، في الشارع إن سلّمنا جدلاً، لكن ليس في أرض بور بين قريتيْ ميم وراء قبالة مزارع الدجاج!

اختلط الأمر كليّاً على نجيب فقال وقد بدأ صبره ينفذ من إيحاءات روبير:

- يا أبو الرّور لا أفهم... أين تريد إيصالي بكل هذا؟

قال روبير بشيء من الإنفعال:

- أنا على استعداد لقطع يدي يا أبو جوزيف إن كنت مخطئاً... لا بل إقطعها أنت أكيد عندك فرَّاعة... يا أخي هناك متورطون ودول بحالها وأحوالها تقف وراءهم... هذا تهريب! وطرق بيده على الطاولة بحزم... يهربون أعضاء الجرحى السوريين عبر عكار وهذا لم يبدأ اليوم بل منذ سنوات... أحلف بهذه الكنيسة، إن الذين اشتبكوا مع المخابرات ليسوا إرهابيين ولا من يحزنون.... هذه قصص يحبها الغوغاء الهَرَدَبَشتْ.

غادر روبير بعد العشاء تاركاً نجيب في ذهول. سأل ابنه إن كان الرقيب على ما يرام، فكلامه عن التهريب فيه هوس واضح، وهو أقرب إلى الأفلام منه إلى الواقع. وتفاجأ نجيب بابنه الذي بدا أنه لا يأبه لحالة الرقيب حقاً. كانت لدى جوزيف رغبة كبيرة بالبقاء في البيت ونسيان المطعم والناس. لكنه خرج بعد ذلك ومرّ بمنال ليقلها معه. صعدت في السيارة وكانت صفراء الوجه، تذبحها فلا تخرج منها نقطة دم كما يقال.

يفتتح المطعم الريفي أبوابه خلال عطلة نهاية الأسبوع فقط والسبب في ذلك يعود لقلّة الزبائن خلال الأيام الأخرى. وتقام حفلة مساء كل سبت، غالباً ما يقدمها مطرب شعبي يرافقه رجل آخر يضرب على الطبل. ويبدو أن هذا التنظيم لاقى نجاحاً واسعاً بين أهل القرى والبلدات القريبة وحتى بين المصطافين الذين لا يمتلكون خيارات عديدة للرقص والفرح، فيعج المطعم بالناس. خلال الحفل، استغلت منال لحظة تغيّب فيها جوزيف عن المائدة ناسياً هاتفه ففتحته ونظرت إلى لائحة الإتصالات. اختارت الرقم الوحيد المجهول وطلبته على الفور. لم تكن تعي ماذا تفعل حقاً، لكن الغيرة كانت تنهشها. أضف إلى ذلك أن شكوكاً كثيرة تراودها، أكثرها إيلاماً هي تلك التي تقول لها إن جوزيف لم يعد يشتهيها، وإن هذه غلطتها لأنها لا تقبل بممارسة الجنس معه. كانت تتعذب عذاباً شديداً، وتشعر بثقل كبير.

طلبت منال الرقم وأجابتها ماريا بطبيعة الحال فالرقم رقم بيت جدة ماريا، ولكن منال أغلقت الخط فور سماعها صوت الصبية الفرنسية. انتابتها رجفة صاعقة من شدة الخوف وقالت إن هذا صوتها،

المرأة التي تسرق رجلها منها، التي لا تضع أمامه حواجز كما تفعل هي. وضعت الهاتف بعد ذلك على الطاولة وانتظرت كي تعاود تلك المرأة الإتصال بها، فتتأكد بذلك أنها هي صاحبة ذلك العطر الذي شمّته على جوزيف. لحسن حظ الأخير لم يكن في بيت جدة ماريا أيّ كاشف للأرقام، فتعذر على ماريا معاودة الاتصال.

اتصل أحمد بجوزيف مرة ثانية في منتصف الليل تقريباً، في لحظة بدأ يصير فيها وضع روبير محرجاً. قال إن الجو في الماخور رائع، وإن الست ليلى تشرف شخصياً على تقديم الخمر، فبرقت في رأس جوزيف فكرة مجنونة بالانضمام إليهم. بعد لحظات، استفاق الألم الخفيف في طبلة أذنه، وترافق مع نزوات جنسية قوية، عجز عن السيطرة عليها، كانت الصور فيها غير واضحة. صار أسير عشرات الأفكار والصور الجنسية، فتشوش عقله واختلطت عليه الأمور. راقب النساء اللاتي يرقصن في المطعم، ثم تذكر رائحة جسد ماريا، ليلى والماخور، وأفلام البورنو التي شاهدها بعد الظهر.

انفصل تدريجياً عن جو المطعم، وبدا مكدوداً.

أراد أن ينتهي من ذلك الألم الذي تشبث به بأسرع وقت، فدلف إلى المرحاض وأجبر نفسه على الإستمناء في مشهد دام عذابه خمس دقائق.

حالَ وضع روبير الذي تعتعه السكر بين جوزيف وفكرته المجنونة بالذهاب إلى الماخور. لقد شرب الرقيب كثيراً رغم أنه رفع عالياً سقف المواجهة الدائرة بينه وبين الكحول. فهو إن أتى بالآلية العسكرية إلى المطعم، فإنما قام بذلك لتمنعه مسؤولية قيادتها من الشرب. قال جوزيف إنه سبق ورأى عباقرة على التلفاز، لكنهم ليسوا نقطة في بحر عبقرية روبير. قالها هكذا وهو يفتح ذراعيه واقفاً أمام طاولته وسط المطعم، ويكلم نفسه كمجنون.

لقد تناسى روبير نفسه، تناسى التحدي وثمل بسرعة. شرب أنواعاً كثيرة، وراح يتفوّه بكلام غير مترابط، فيتحاشاه الجميع. وعندما أوقف إحدى السيدات الأنيقات في لحظة نحس وقال لها مخرفاً:

- في البداية كانوا يدخلونهم إلى تركيا... إبرة مورفين فيستفيق بكلية ناقصة... هئ هئ ثورة الكلى... عملت دولارات... سلاح وكبتاغون وقطع غيار بشرية... لكن لما طالب الأكراد بحصتهم.... الأكراد شرسين بععءءء

تجشأ بقوة ولم يتمكن من متابعة ما يقوله، عندها تماماً طفح الكيل بجوزيف وأحسّ بالعار، فتقدم نحو روبير بخطوتين سريعتين، اعتذر من السيدة وسحبه إلى الخلف بعنف.

تقيأ الرقيب مرتين في حوض فيه صف من أزهار النرجس عند مدخل المطعم، تجعدت قميصه البيضاء واتسخت، وتشعث شعره الذي أمضى وقتا طويلاً في ترتيبه. ارتعدت منال من منظره وكان

قد بدأ يغمغم بالكلام فتجمعت في زوايا شفتيه رغوة بيضاء. ساعداه للوصول إلى المقعد الخلفي داخل الجيب، ثم طوت منال ركبتيه وأغلقت الباب بعنف. استدارت بعد ذلك حول السيارة، ومنعت جوزيف من الصعود إليها بعد أن اعترضت دربه شابكة ذراعيها.

قالت مهددة:

- الآن ستقول لي، الآن! ستخبرني بكل شيء... ما اسمها؟

لم يكن جوزيف مرتاحاً أبداً. قال بشيء من القرف:

- كفى الآن... لست بمزاج لأسمع نكدك... دعينا نمضي في طريقنا لنرى ماذا سنفعل بروبير. لم يحلُ له المجيء إلى هنا إلا بالآلية العسكرية...

- نكدة؟ أنا نكدة إذن؟ والرائحة التي شممتها عليك اليوم؟ أهي نكد أيضاً؟

صمت جوزيف لا ينبس بكلمة، فصمتت هي بدورها كأنما الأسرار انفضحت.

قررا العودة بالجيب وترك السيارة في موقف المطعم. كانت منال في تلك الفترة تتعلم القيادة، لكنها لم تتمكن منها بعد ولا زالت تخاف كثيراً خلف المقود. مرّا وسط بلدة عمت فيها احتفالات ليلية ووجدا نفسيهما داخل موكب شكّله محبو نادي برشلونة الذي تأهل إلى نهائي دوري أبطال أوروبا. وكان جوزيف يشعر بألم شديد يقلب معدته، ويجد منال بلهاء وساذجة وسطحية إلى حدود لا تطاق. رجاها أن تصمت، فهي لم تتوقف عن طرح الأسئلة عليه، ولما كانت ترفض السكوت، كان ذاك الشعور بالعنف يستعر بداخله.

رفع زجاج النوافذ وأقفلها بالقفل المركزي. صارت تصرخ أكثر لأنها أدركت بالضبط ما يرهبه. ترهبه فكرة أن يتخاصما أمام الناس، وشعرت أن وقت ازدحام السير سيكون كافياً لتنتقم منه. تقدم جيب قوى الأمن الداخلي ببطء في الموكب الذي علته رايات نادي برشلونة لكرة القدم وصور ليونيل مِيسي. كان جوزيف يشعر بحر شديد لكنه لم يرد فتح الشبابيك لئلا يسمع أحدهم صراخ منال أو شخير الرقيب المطروح في الخلف، وقد تغيرت وضعية جسمه بفعل القيادة الرعناء في الطريق من المطعم، فصار رأسه تحت كرسي السائق فيما قدماه على المقعد خلفه.

ران صمت بسيط بعد الصراخ، بقيت منال شاردة الذهن قليلاً، تراودها أسئلة نادراً ما تجرأت على طرحها بهذا الوضوح. إنها تخاف من هذه الأسئلة لأن فيها مفردات مثل انفصال ونهاية إلخ... لكنها في تلك الليلة تجرأت على تخطي خوفها وسألته:

- هل تريد أن ننفصل؟ إن كان هذا أفضل لنا فأنا لا مانع عندي... أريدك أن تعرف أنك لست مجبراً على الزواج بي... خراء على الناس وكلام الناس، وماذا يهمنا منهم؟ لكن يجب أن تعرف أنه من حقي

أن أتأكد من حبك لي. هذا حقي ولن أتخلى عنه أبداً!

يُحمّل جوزيف منال بعض المسؤولية عن علته. لا لأنها ترفض ممارسة الجنس معه، إنما هو يتهمها بعدم انتشاله من عذابه وإدمانه، وكونها خطيبته هو أساس هذه التهمة. لقد بدأ يكرهها منذ فترة لأنها خطيبته ولأنها تقف متفرجة. ولهذا السبب تحديداً يجدها بلهاء وسطحية وساذجة، كأنما عليها أن تعرف كل مكنوناته وعلله من دون أن يبوح لها بكلمة واحدة، كأن تلك بداهة.

قال لها متهرباً:

- دعينا نرى ماذا نفعل بروبير أولاً...

وصلت السيارة إلى القرية قرابة الواحدة والنصف فجراً. لمح جوزيف ضوءاً أبيض قوياً في حديقة بيت مطانيوس غريب، ورأى افراد العائلة جالسين في الحديقة يشاهدون فيلماً بالأبيض والأسود بواسطة بروجيكتير موجه إلى شاشة بيضاء علقت بين جذعيْ شجرتيْ حور.

على الشاشة الكبيرة ممثل قصير القامة، يلبس بدلة عسكرية تشبه بدلة النازية، وله شاربان على نسق شاربي أدولف هتلر. تدثر المشاهدون بأغطية خفيفة، وصمتوا يتأملون الرجل الذي تسلق ستائر سوداء عالية في غرفة تبدو أنها من جناح فخم في قصر، ثم نزل إلى الأرض مجدداً، وبدأ يلعب بطابة عليها خارطة الكرة الأرضية. كان الرجل يداعب الطابة ويقذفها إلى الأعلى بهدوء فتصل قبالة لوغو كبير فيه صليبان أسودان.

أزعجه ذلك الأمر. أزعجه أن الناس في بيت مطانيوس غريب جالسون وسعداء ومكتفون كأطفال أمام برنامج للرسوم المتحركة. صار حاقداً على العالم. قال في نفسه: ''العقل زينة''، ثم استدار إلى الخلف فوجد الرقيب يغط في نوم عميق وسال على طرفي ذقنه لعاب. طلب من منال بنبرة جافة أن تترجل من السيارة، ثم قال إنه سيحضر القهوة لروبير في البيت، ثم يعودان إلى المطعم ليسترد سيارته. نظرت إليه وانتظرت أن يقول شيئاً ما. ابتسم لها ابتسامة مبتذلة سخيفة، ثم عاد إلى عبوسه. بقيت متجمدة بجانبه، فأطفأ المحرك وأطلق زفرة قوية ثم تحسس أذنه التي آلمته. ران صمت بسيط، ثم قدم اقتراحاً راجعه في رأسه عدة مرات في الطريق:

- منال، لا تفقدي السيطرة على نفسك آه... ألا ترين أنه من الأفضل تأجيل الزواج؟

تحجج ببناء البيت وبوضعه المالي. رأت منال في تلك اللحظة علاقتها الوحيدة تسقط كما تسقط ورقة عن شجرة، وشعرت بدوار طفيف. بحركة سريعة تمردت على ذلك الخوف الذي كاد يفجر صدرها، فترجلت من الجيب متقصدة ترك الباب مفتوحاً. استدارت حول السيارة إلى الجهة التي جلس فيها، طرقت على النافذة مرتين. عندما فتحها قالت له:

- من الأحسن إلغاؤه إذن.

ثم غادرت.

في مساء اليوم نفسه، أي مساء السبت، طُرِق باب بيت نجيب بعنف. كان جوزيف يستعد لجولة لعب جديدة على الكومبيوتر. فتح الباب فوجد أيوب عاقداً حاجبيْه أمامه. والد منال لا يبتسم إلا في المناسبات أساساً، وهو شخص مدّع، طويل القامة عريض المنكبين، نال منه الصلع، وله شاربان أسودان عريضان. إنه محافظ جداً، لا يتلاطف ولا يلاطِف، ولم يخطئ جوزيف كثيراً في وصفه عندما قال عنه إنه كيس باطون متحرك.

لم يحصل أن أتى أيوب وحيداً إلى بيت نجيب منذ العام **2006** عندما قصف الطيران الحربي الإسرائيلي الطريق الدولية، وما تبع القصف من مشاكل بين العائلتين. غير أن مجيئه في هذه الليلة، خصوصاً وأنه بمفرده، أثار استغراب نجيب، لا بل أقلقه.

كان نجيب قد ارتدى قميص نومه المخطط كزي السجناء، وتمدد متوسداً ذراعه على الكنبة يشاهد بكل تركيز فيلماً وثائقياً على قناة "بي. بي.سي" العربية عن صائدي الكنوز في منطقة اللوزير الفرنسية، ويتفرج على آلة كشف المعادن التي حملها أحد المنقبّين الفرنسيين، ويحلم بامتلاك واحدة مثلها. أثارت رؤية مفاتيحها في داخله شعوراً نوستالجيا إلى تلك الأيام التي كان ينقب فيها بجانب الجورة.

نهض عن الكنبة مثل السهم بعد أن سمع سعال ضيفه. وصل إلى مسكة الشباك بخطوتين، فتحه كي ينجلي قسم من الدخان الذي عبق في الغرفة بكل كثافته وقد أسف على ضياع ما تبقى من الوثائقي. دخل أيوب الباب متجهماً وجلس. أشار بعد ذلك بيده، بحركة نمّت عن عدم رضاه، إلى أم جوزيف التي همّت بوضع إبريق الشاي على النار ثم قال بصوته الغليظ:

- أم جوزيف، الله يحفظك... لا قهوة ولا شاي ولا ضراب السخن... تسلم يداك. أتيت فقط لأستوضح ما سمعته اليوم من البنت.

ذُعر نجيب مفكراً بعبارة ضراب السخن. الله يستر! أخذ يراقب ضيفه يشبك أصابعه الثخينة التي أرخاها على كرشه، ويبرم بإبهاميه حول بعضهما. لم يبادر إلى سؤاله، لكن الضيف بدوره لم يرد أن يبادر إلى الكلام أيضاً، فران صمت ثقيل ومحرج. كان أيوب، أبو ربيع، يرمي نظرات سوداء فيها غيظ واضح صوب جوزيف الذي تحاشى نظراته. من الواضح أنه كان يريد من جوزيف أن يتكلم، غير أنه عندما شعر بقلة تجاوبه قال:

- يا أبو جوزيف... سأتفادى اللف والدوران معك. تريدون تأجيل العرس؟ هيك؟ من دون إذن ولا

دستور؟

نظر نجيب مصدوماً إلى زوجته، ثم إلى جوزيف. تجمد الإبن وبلع ريقه حرجاً، فهو لم يتوقع أبداً أن تنقل منال الخبر بهذه السرعة، لأنه اعتقد أنها سوف تكلمه عاجلاً ام آجلاً في هذا الشأن، وأن المشكلة سوف تُحل بينهما كما جرت العادة. فكر في نفسه وخالجه إقرار بأنه قد حمّلها الكثير، وأهملها أيضاً. وشعر فجأة بأنها صالحة جداً، أنها أحسن منه بكثير، وأنه لا يستحقها زوجة له. جلد نفسه، كأنما هذا الشعور الغريب راوده فقط بسبب خوفه من ضياعها من بين يديه أو ربما بسبب خوفه من أبيها.

وكان أيوب يغلي ويرتجف من الغضب كأنه احتفظ بكل سخطه حتى هذه اللحظة بالذات. تابع أبو ربيع كلامه مهدداً:

- أنا؟ أنا يا نجيب، الكولونيل الذي كان يسمع صوت رنة الإبرة في السرية عند وصولي، لا أحد يستشيرني بموضوع مثل هذا؟ والله لن أقبل بتغيير موعد العرس ولو حتى ليوم واحد أو ساعة واحدة، فإما أن يكون العرس، أو لا يكون.

أضاف بشيء من الفلسفة:

- هذا ليس دق طرنيب... شِيه!

لم يعرف نجيب ماذا يقول. نظر إلى جوزيف مجدداً، وانتظر منه أن يقول شيئاً. تردد الأخير قليلاً قبل أن يتكلم متلعثماً:

- عمي أبو ربيع، شربت كأسين البارحة... ما فِـ...

قاطعه نابحاً:

- حلو والله... غداً في ليلة العرس ستشرب كأسين ثم تطلقها!

ثم استدار إلى ناحية نجيب وقال:

- إسمع يا أبو جوزيف، منال تتكلم عن أمور أخرى، لا يمكنني أن أدخل في تفاصيلها الآن احتراماً لأم جوزيف... أقولها لك بكل صراحة، أنا لست مستعداً للمخاطرة بسمعة ابنتي أبداً أبداً.

وضرب براحة يده الضخمة على الطاولة الصغيرة أمامه عند كلمة أبداً، ثم خرج من دون أن يضيف أي كلمة.

٩

صبيحة يوم الأحد تجادل جوزيف مع أبيه. كان نجيب قد رجاه ليلة أمس أن يذهب ما إن يستيقظ إلى منال ويصالحها، وخلد الإثنان إلى النوم بناء على هذا الاتفاق. غير أن نجيب استيقظ ووجد اِبنه ممدداً على الكنبة يشاهد فيلماً لستيفن سيغال وهو يقضي على عشرات المجرمين المكسيكيين، وبجانبه على المنضدة فنجان قهوة وبعض غلافات ألواح الشوكولا، ومنفضة قذرة مليئة بأعقاب السجائر. كانت عينا جوزيف حمراوين، لم ينم الليل. حين سأله نجيب عن موعد ذهابه إلى بيت منال فوجئ ببرودته.

كان نجيب بمزاج عكر بسبب هطول المطر. منذ فتح عينيه رأى بعض الوحول مترسبة أمام المرآب، فتذكر شجاره مع رئيس البلدية الذي فضل إنفاق ألفي دولار على شجرة الميلاد عوض توسيع قناة الصرف فوق بيته. كان محتداً وهذا ما زاد الطين بلة. ثم دخلت هدى إلى الصالون تحمل صينية القهوة الحديدية، فوجدت رجلي البيت صامتين، وشعرت بالجو مشحوناً. لم يتردد جوزيف في تقريعها عندما ذكرته هي أيضاً بخطيبته منال، فقال بوقاحة، لم يتجرّأ على إظهارها حينما تكلم مع أبيه منذ لحظات:

- خلص يا ماما... أنتما محقان... كان عليّ أن أستشيركما قبل أن أعرض عليها تأجيل الزواج... لكن الفكرة ليست سيئة إلى هذه الدرجة كما تظنان... لا أريد سماع أي كلمة بهذا الشأن، أنا بحاجة إلى الوقت...

تدخل نجيب منفعلاً:

- عن أي وقت تتكلم آه؟! الذي يسمعك يظن أنك تمضي أيامك بين الخدمة وورشة البناء وأنك لا تنام بسبب العمل... هه!؟ لقد تركت لك الحرية لتفعل ما تشاء، في حين أكدّ مع العمال لبناء بيتك يا...

كان على وشك أن ينعته بالدنيء لكنه أحجم.

أجاب جوزيف:

- ولماذا أنت مستعجل إلى هذه الدرجة؟ إن كنت لا تريدني في بيتك... قلها فقط. أستطيع أن أتدبر أمري جيداً.

فرك نجيب أنفه وذقنه غير مصدق ما يسمعه، ثم التفت إلى زوجته ورمقها بنظرة غاضبة، كأنما يبلغها بها أنه سيفقد أعصابه إذا لم تقم بشيء فوراً. صمت وأخذ يرتشف فنجان القهوة وعيناه جاحظتان

تقدحان شرراً ولا تفارقان ابنه، فيما ارتجف الفنجان في يده من شدة الغضب. أطفأت هدى التلفاز على الفور، اقتربت من جوزيف، انحنت انحناءةً خفيفة فوقه ثم صرخت:

- لا أحد يريد طردك من هنا... لكنك لست طبيعياً... أنت تمضي كل الوقت في غرفتك، صرت انعزالياً ومدمناً... عدا هذا المهبول روبير لم أرَ صديقاً وحيداً لك في البيت منذ سنوات... كفى الآن. تذهب إلى منال وتقبل يدها ورجلها وتطلب منها السماح... يلّا... يلاّ يلاّ... لا أريد أن أراك هنا قبل أن تتصالحا!

وخزت كلمة مدمن جوزيف في الصميم. انتفض عن الكنبة، وكان لا يزال ممدداً حتى هذه اللحظة. جلس بلمح البصر، مد ذراعيه وباعد ساقيه سائلاً:

- مدمن؟ ما هذا الذي تقولينه!؟ كيف مدمن يعني... على ماذا مدمن!؟

- على الألعاب! على ماذا يعني؟ إنك تلعب ليلاً ونهاراً... ولعلمك لم أتفاجأ كثيراً من زيارة عمك... لقد كلمتني منال في غير مرة عن هذا الموضوع... قالت إنك دائماً مستعجل، وإنك لا تريد أن تقضي وقتاً معها وإنك تعيش داخل الكومبيوتر... كل ما تريده هو الكومبيوتر... إيه خراء عليك وعلى الكومبيوتر... تزوَّج منه!

نهض جوزيف عن الكنبة غاضباً. لبس بدلته العسكرية، فتح درجاً في خزانته لكنه لم يجد أية جوارب مغسولة. التقط جوربين متسخين من سلة الغسيل، لبسهما بالمقلوب ثم خرج إلى الردهة على وقع صراخ أبيه. لم يكن يستمع إلى شيء مما يقوله. حين فتح الباب في آخر الردهة، ضرب الضوء عينيه وشعر بألم حاد فيهما، كأنه خفاش خرج للتوّ من مغارة.

ما إن خرج حتى حصل شيء بسيط قد يفسر، بشكل أو آخر، حالة الانفصال عن الواقع التي يعيشها، وعجزه عن تفهم قلق أهله أو تقدير أي شعور إنساني كان.

لقد راودته أفكار غريبة لا يمكن للمرء أن يجد تفسيراً لها. ومع أن تلك الأفكار لم تدم أكثر من ثوان إلا أنّ مجرد ورودها يحمل دلالة كبيرة.

لمح صفاً طويلاً من السنونو حطّ على شريط الكهرباء قبالة بيته. فكر في العودة إلى الداخل لجلب الجفت وصيدها، حتى أنه تذكر أنه قتل أربع عشرة سنونوة بطلقة واحدة، وهذه ذكرى تعود لسنوات يستغرب المرء كيف باستطاعة عقله تعويمها في هذه اللحظة بالذات. لكنه غيَّر رأيه في اللحظة الأخيرة، لا لأنه استحى من العودة إلى الداخل بعد إغلاقه الباب خلفه بعنف، وتعليقه سجالاً إضافياً إلى موعد آخر، أو لأنه تذكر أن الصبية الجميلة الفرنسية تحب الطيور، فماريا ليست في خاطره أبداً. كل ما في الأمر أنه تذكر أنه نظف الجفت منذ بضعة أيام وأراد أن يحافظ عليه نظيفاً. يبدو موضوع

النظافة مهمّاً جداً بالنسبة له إذ يحمل أبعاداً إضافية ومرضية. كأن هذه النظافة، بدورها، انعكاس لوسوسته من نظافته الجنسية. يتذكر في هذه اللحظة نصلة الجفت الروسي ماركة بايكال تلمع من الداخل، وليس عليها ذرة من أثر البارود. الجفت نظيف، وهو أيضاً شاب نظيف، مرتبط، يقوم بكل شيء كما تفرض العادات والتقاليد، الصح والخطأ. وإن قام بمعصية في مكان ما، فشاهد أفلام البورنو مثلاً، ينظف كلَّ أثر تركته الجريمة. يرمي المناديل في المرحاض ويفتح عليها الماء، يأخذ حمّاماً ويتعطّر، من دون أن ننسى أنه ينظف تاريخ محرك البحث على الكومبيوتر، ولكنه لم يتعلم كيف يقوم بذلك على الهاتف المحمول بعد.

وصل إلى المركز وهو يفكر بماريا منذ أن مرّ بجانب بيت جدتها في قرية ميم. وجد الرقيب روبير جالساً أمام الكومبيوتر صاباً كل تركيزه على شوط من البيلياردو يلعب مباراة حاسمة ضد شخص من تايلاندا. قيمة المباراة خمسون ألف قطعة نقدية افتراضية أمضى الرقيب شهوراً يجمعها. كانت أرضية المركز متسخة بسبب تسرّب بعض المياه الموحلة مع أن العاصفة كانت عابرة لكن زخّ المطر كان عنيفاً.

وقف جوزيف خلف الرقيب صامتاً يتفرج على المباراة. كان روبير قد بدأ يفقد تركيزه تدريجياً منذ رأى جوزيف داخلاً، وخسر المواجهة.

أغلق الصفحة والتفت إليه وقال:

- جوزيف أريد أن أعتذر منك مجدداً عمّا جرى في المطعم... أقسمت يميناً أني لن أشرب بعد اليوم. أنظر هناك... أترى تلك الزجاجة؟ رأيت مثلها قبلاً... لا؟

- كيف وصلتك؟

- كيف؟! هه!... وكأنك لا تعرف! جاء فرنسيس برفقة ابنته، وأهداني إياها لأني لم أحضر العشاء... والآن صارت من نصيبك.

أضاف قائلاً:

- إيه... صحيح، سألتني ماريا عنك... قلت لها إني لم أرك منذ أيام... سألتها إن كانت تريد رقمك ولكنها قالت لا... لا أدري لمَ شعرت أنها أرادت أن أقوم بما أقوم به الآن: أي أن أخبركَ أنها رفضت الحصول على رقمك... هل بينكما شيء ما أم إني أخرِّف؟

ابتسم جوزيف ابتسامة صغيرة ولم يجب لا نفياً ولا إيجاباً. لم يعرف ماذا يقول أو كيف يصف ما حصل بينه وبين ماريا. أدرك روبير ذلك فوراً فقال على عجل فيما تقف سيارة في الخارج ترجل منها الزميلان أحمد ومصطفى:

- إيه خير... خير... ليس هناك إلا الخير... ربما ترحل معها من هذا البلد الزفت. ماذا تريد أفضل من ذلك؟... إياك أن تقول شيئاً لهما، وهزّ برأسه مشيراً إلى مصطفى وأحمد... ثم انتبه أيضاً من أبو ربيع إذا صمّمت على المضي قدماً معها... أعرفه جيداً أيوب هذا، منذ كان في السلك... إنه بغل ويظن نفسه إنساناً عظيماً.

قال جوزيف في نفسه إنه لو لم يتصل بماريا، ستكون هي المبادرة إلى نسيانه أولاً، وهذه الفكرة مسَّت بكبريائه. تراءى له بعد ذلك بلمحة سريعة مشهدٌ وهو يمارس الجنس معها، وشعر بنار الإثارة تتأجّج في معدته. خرج فوراً إلى باحة المركز وهاتفها مع أن الوقت كان لا يزال باكراً. قالت له إنها ستعاود الإتصال به بعد حين لأنها مشغولة قليلاً. لم يصدق أنها مشغولة، بل ظن أنها تتعمد تأجيل الحديث معه ولا بد أن يكون هذا جزءاً من عقابه.

كانت سيارة إسعاف قد وصلت إلى بيت جدة ماريا في الرابعة فجراً. هبط ضغط العجوز كثيراً في الليل وطلبوا لها الإسعاف. بالنسبة إلى ماريا، تتلخص حساسية المسألة بردة فعل أبيها، لا بحالة جدتها التي أعلموها أنها ستجري فحوصات كثيرة، وأنها في تحسن منذ السابعة صباحاً. لقد شعر فرنسيس بخوف وقلق كبيرين لم يخفيا على ماريا. وعلى الرغم من مجيء إخوته إلى البيت وإبدائهم انتباهاً كاملاً تجاه أمهم، إلا أن فرنسيس، بواقع حاله كمهاجر، وجد أنه سيكون من الصعب جداً عليه أن يعود إلى حياته اليومية في فرنسا، وصارح ماريا بذلك. أخبرها عن خوفه من أن تموت أمه وهو بعيد.

الأنباء السيئة تأتي مع بعضها، فإضافة إلى الحالة النفسية التي عصفت بأبيها في ذلك اليوم تلقت ماريا اتصالاً من صديقتها المقربة في فرنسا، أخبرتها فيه أنها انفصلت عن زوجها لأنها اكتشفت أنه يخونها مع امرأة أخرى منذ سنوات.

عندما اتصلت بجوزيف بعد ثُلث ساعة تقريباً من اتصاله كانت في حال من البرودة ولم يكن جوزيف في أعلى سلم أولوياتها. وانتظر الأخير منها أن تلومه بسبب غيابه غير أن ذلك لم يحصل. لم ترد ماريا مخاصمته بعكس ما يريد هو، وأغضبه هذا الأمر. إنه يتصرف كمراهق. لم تظهر له ماريا غيرة مجنونة كتلك التي تظهرها منال كلما فاتها تفصيل تافه من حياته، ولم تطالبه بلائحة من الإجابات، مع أنها لم تكن تتردّد في إبداء رأيها بما يحصل:

- صحيح أن الأمر لا يجعل مني أسعد شخص في العالم، خصوصاً في مثل هذا اليوم، لكنك لست مجبراً على الإتصال بي... خصوصاً، وشددت على كلمة خصوصاً، إن كان في ذلك تكلّفاً... إما أن تحصل الأشياء بطريقة طبيعية، وإما فالأفضل ألّا تحصل.

دام الحديث عبر الهاتف حوالى عشر دقائق، وحاول جوزيف في خلاله أن يشرح لماريا سبب تغيبه

مختلقاً قصصاً وأعذاراً. أعطته فرصة للاستماع إليه رغم أن أفكارها كانت في مكان آخر. شيئاً فشيئاً بدأت ماريا تُظهر تراجعاً معيناً، وربما يعود ذلك إلى فكرة بسيطة راودتها فيما جوزيف يدلي بتفاهاته الكثيرة، فكرة مفادها أنه قد يكون من الجيد أن يلتقيا فتجد من يستمع إليها.

كانت ترغب بشدّة في أن تكلم أحدهم. أن تروي لأحدهم ما حصل فجر اليوم، فهي لا تعرف ماذا تقول لأبيها أو كيف تجيبه عن تساؤلاته الكبيرة. على هذا النحو، وضعت برودتها جانباً، واتفقت معه على الإلتقاء في أول المساء.

يمضي النهار سريعاً والغيم لا يزال منخفضاً لكنه صار فاتح اللون بعكس ما كان عليه في الصباح. أيوب، منال، والدا جوزيف، ماريا، جوزيف، كلّ في دنياه ومشاكله. حتى صغير الدوري الذي خرج للتو من عشه، يحاول الطيران للمرة الأولى، وجد صعوبة في ذلك فهبط من شجرة الكينا المزروعة وسط باحة مركز قوى الأمن الداخلي. حتى صغير الدوري هذا كانت له دنياه ومشاكله. ولم يعرف جوزيف أنه، بطريقة أو أخرى، ترك لشخصِه حيزاً واضحاً في تفكير كل هؤلاء. إنه الرابط الوحيد بينهم، رغم أن علاقته الشخصية مع كلٍّ منهم، لا تبدو في أوج تألقها وصحتِها. كل هؤلاء، ما عدا صغير الدوري، يفكرون فيه متسائلين عمَّا ألمّ به.

طلب جوزيف من الرقيب مأذونية لإثنتيْ عشرة ساعة فوافق من دون تردد، كأنه أراد التعويض عن فعلته في تلك الليلة عندما كان ثملاً. خرج جوزيف بعد ذلك وجلس على سطح المركز يشرب الشاي ويلعب على الموبايل.

وصلته رسالة من زميله أحمد الحارس في دشمة المراقبة الثانية على بعد ثلاثين متراً غرب المركز، ففتحها ووجد فيها صورة الست ليلى. أُخذت الصورة خلال سهرة يوم الجمعة في الماخور. أخذ جوزيف يكبرها وينظر إلى المرأة فيها عن كثب، ثم وقف بعد ذلك، ونظر إلى الدشمة فلمح أحمد يحييه ساخراً. شعر جوزيف بفضول معين وأراد أن يعرف كيف مضت السهرة. لم يكلّف نفسه عناء الذهاب إليه بل اتصل به وبدآ يتحدثان عن السهرة عبر الهاتف مثل أحمقين. وراح أحمد، وهو ببدلته العسكرية وحاملاً سلاحه، يمسد أكياس المتاريس القنبية المملوءة بالرمل، ويتحسس جسمه ويقوم بحركات جنسية مثل كَرَكُوز. جرى كل ذلك بينما كان يشرح لجوزيف عبر الهاتف عن مدى إثارة ليلى.

رآه الرقيب عبر النافذة من حيث يجلس خلف مكتبه، رآه يمسد أكياس الرمل ويحرك حوضه ويحتك بها، فتابع مباراة البلياردو بعد فكرة موجزة عبرت خاطره:

- هذا الشعب هائج.

استمر جوزيف يضحك، ثم صمت قليلاً وسأل:

- ...هي كالأخريات يعني؟

- لا... لا أعتقد... أمرها غريب حقاً... أنت تعرف مصطفى... مصطفى الحِمِش حاول معها في غير مرة لكنها لم تقبل... كانت تطرده مثل كلب... مثلما طردته ماريا هههههه... ثم في آخر السهرة... ها ها ها... في آخر السهرة كان هناك عجوز حقير ثمل، خسر كل شيء على طاولة البوكر... وضع أمامها سبعمائة دولار... إسمع ماذا صار يقول عجوز النحس: حلفت يميناً لن ألعب بهذا المال... إنه لك... ليلة واحدة... ليلة يا ليلى... وصار يغني ويرقص... الليل يا ليلى يعاتبني ويقول لي سلّم... تمْ تمْ تم... هئ هئ هئ...

انفجر الإثنان ضاحكين، ثم أضاف أحمد:

- مْهَرغَل النحس يقود سيارة مهترئة لو باعها ما بتجيب مئة دولار... من أين له هذا المال؟

سأل جوزيف سؤالاً ترك أحمد مشدوهاً لثوانٍ:

- وهل قبلت هي بذلك؟

- أنت مجنون! أقول لك إنه عجوز عفن...

نزل جوزيف عن سطح المركز وتوجه نحو أحمد الذي دعاه لأمر ضروري جداً. ولم يكن لينزل من حيث هو لو لم يشعر أن هناك المزيد من الأخبار المتعلقة بليلى. عندما وصل عرض له أحمد صوراً التقطها خلال حفلة ليلة أمس، وتبدو فيها ليلى تحمل زجاجات مختلفة من الخمر، حتى أن هناك صورة لها فيها تحمل ألفيّة عرق قديمة. صار أحمد يشير إليها ويتكلم عنها باهتمام بالغ، ثم أضاف:

- أنظر، صرنا صديقين على الفايسبوك... أطلب أنت صداقتها عليه إن شئت، لكن لا تخبر الثقيل الظل مصطفى، ولا تكتب أو تضع أي شيء على صفحتها الخاصة، فهي متزوجة ولا تريد مشاكل...

- متزوجة؟ وماذا تفعل امرأة متزوجة في ماخور؟

- وما أدراني أنا؟ ما همي أصلاً؟ سأجرب حظي معها...

عاد جوزيف إلى مركز حراسته ثم طلب صداقة ليلى، ليلى الشيخ، من دون عناء تفكير. قبلته على الفور فذهب إلى صفحتها الشخصية يبحث عن صورها لكنه لم يجد شيئاً. بحث بعد ذلك في لائحة أصدقائها القصيرة، فاكتشف أن معظمهم بأسماء مستعارة، ومن ضمنهم زميله أحمد، النسر الملكي. وفيما هو يقلب في صفحة المرأة سمع أجراس كنيسة قرية ميم تقرع من بعيد.

بالعودة إلى قرية جوزيف فقد توترت الأمور أكثر بعد لقاء نجيب بأيوب بُعَيد القداس. كان والد منال ينتظر مرور جوزيف به وبإبنته قبل ذهابه إلى الخدمة حيث سيبقى ثلاثة أيام. لقد قال في نفسه إنه من

غير المعقول أن يكون الشاب طائشاً إلى هذه الدرجة، وإنه لا بد من أن تبدر منه بادرة خير، فيمر به، ليقدم له ولإبنته اعتذاراً واضحاً وصريحاً. وبما أن جوزيف لم يلتزم الإتفاق الذي أبرم بينه وبين أبيه، وجد نجيب نفسه في وضع حرج جداً عندما قابل أيوب بعيد القداس.

لكن نجيب، مع ذلك، لم يرد أن يبدوَ أمام الناس، خصوصاً وأنه يقف في ساحة الكنيسة وهو المكان المقدس، كأب فاشل لولد سافل دنيء.

مما لا شك فيه أن أيوب استغل وجودهما في ساحة الكنيسة ليؤنب نجيب ويسمعه كلاماً قاسياً بين الناس. القوة، مهما كانت نتيجتها، هي التكتيك الوحيد الذي يعرفه رجل عسكري متعالٍ مثله. وقد قبِل نجيب بكل كلمة سمعها من أبي ربيع لأنه يعرف ضمنياً أنه محق وأن ابنه أخطأ، لكنه لم يسمح أن تمر إحدى جمله مرور الكرام، فأجاب، هو الأخير، بلؤم وحصلت مناوشة بسيطة، تدخل على أثرها كاهن القرية جوزيف الراعي وأنّب الإثنين كولدين وأرسل كلًا منهما في طريقه.

منذ وقعت تلك المشاجرة التافهة، وجّه أيوب أمراً لإبنته منال، مهدداً إياها، بعدم الإتصال بجوزيف مجدداً:

- إذا علمت أنك اتصلت به قبل أن يجيئوا جميعهم من كبيرهم إلى صغيرهم، ويقدموا اعتذاراً كاملاً، سوف آخذكِ إلى حيث لن يجدك الذباب الأزرق.

شعر نجيب بحساسية الوضع ولكنه رفض أن يهاتف جوزيف ويخبره بما حدث كما طلبت منه زوجته هدى. كان يرى أن عليه أن يلتقي به وأن يكلمه وجهاً لوجه، رجلاً لرجل. أضف إلى ذلك أن عنده نظرة شخصية سلبية عن أيوب، وهو لا يستلطفه كثيراً. لكل هذه الأسباب إرتأى نجيب أن لا يستعجل الأمور، أن يتركها كما هي، وينتظر ريثما يعود ابنه من الخدمة.

عارضت هدى منطقه:

- ستضيع البنت من يده لو انتظرنا...

أجابها:

- يا هدى إهدئي... إهدئي... مئة واحدة تتمنى شاباً مثل جوزيف... لا يمكننا أن نرضخ ونركض كما لو أن بنت الكلب هي الست بلقيس... الصبي أخطأ وهو يقرّ بذلك لكن من غير المعقول أن نسمع كلاماً ونُذلّ أمام الناس كلّما دق الكوز بالجرّة...

أضاف بغضب رافعاً يديه:

- أوهووو عْلَيْنا!

يجهل جوزيف كل ذلك. عندما وصل إلى بيت ماريا في أول المساء، كانت خرجت تتمشى قليلاً إذ

راقتها النسمة الباردة التي هبت بعد المطر. اتصل بها ثم التقيا في زقاق ضيق وسط القرية القديمة المبنية على الطريقة التقليدية. تجولا قليلاً بين الجدران التي تسلقتها ياسمينات عملاقة، وأخبرته أنها ستبقى وحيدة هذه الليلة، إذ قرر أبوها البقاء في المستشفى مع جدتها. لقد شعرت براحة عندما أخبرها أن بإمكانه قضاء الليل معها، لكنها لم تظهر ذلك له.

فجأة بدأت تُسمعُ في الجهة السورية المقابلة أصوات أعيرة نارية كثيفة تتبعها انفجارات قوية وعميقة، وتشاهد في السماء رشقات من الرصاص الخطاط. ذعرت ماريا فطمأنها قائلاً إنها ليست حرباً بل مجرد احتفالات، ثم اتصل بالمركز وتأكد من ذلك. ثمة معركة وقعت في سوريا، حسمت منذ قليل. هرولا إلى البيت ثم صعدا إلى السطح حيث جلسا لبعض الوقت تحت سقيفة صغيرة، يشاهدان آلاف رصاصات الخطاط المضيئة في السماء، كمن يشاهد المفرقعات.

مضى الليل وجوزيف يتقلب بين البارد والساخن على عادته. إنه شاب مستقيم لطيف ومرح، تتعقد الصورة أمامه فوراً كلما عصفت به الرغبات. وكان يرى أن ماريا، على الرغم من عودة أبيها إلى المنزل في فترة ما بعد الظهر، وعلى الرغم من الحوار الذي جرى بينهما، لم تكن قد ارتاحت كليّاً بعد، فأراد أن ينسيها همّها. ثمة مهمة بريئة طرأت على ذهنه: إنقاذها من القلق.

شغل الموسيقى في البيت، ثم قدم لها كأساً من النبيذ الأحمر، وأخذ يخبرها عن روبير وثمالته في المطعم، وقصصه عن تهريب الأعضاء البشرية، وكيف تجشأ في وجه سيدة إلخ... من دون أن يأتي على ذكر منال بالطبع، وكانت تضحك من كل قلبها، وتقول إنها لم تظن يوماً أن باستطاعتها الضحك في حديث عن الحرب مثل هذا.

وقف جوزيف فجأة وسألها إن كانت تريد أن تخرج في نزهة بالسيارة. وافقت من دون عناء تفكير ومضيا يتنقلان بين قرية وأخرى. تحاشى جوزيف المرور في الأماكن التي يتجمع فيها الشبان لئلا يراه أحدهم، مع أنه في الوقت عينه، كان يرغب بالتوقف أمام أحد المطاعم التي تعج بالناس، والنزول وقضاء بعض الوقت معها على مرأى من الجميع. وجوده برفقة ماريا يعزز لديه شعوراً بالفخر.

وصلا قرابة العاشرة والنصف إلى بيته. نزلا من السيارة وصعدا إلى السطح حيث جلست ماريا تراقب الجهة السورية خلف قرية ميم التي أضيئت كنيستها بمصابيح حمراء. قالت له إنها تحسده على موقع بيته. تبادلا بعض القبل، لكن لم تبدُ له شهية ماريا مفتوحة كما في المرة السابقة، علماً أنها هي التي بادرت، تماماً كما كانت منال تبادر دائماً. وشعرت الصبية بتقصير معين، ففكرت أن تحضر سيجارة حشيش وهو أمر اعتادت أن تقوم به بين الحين والآخر في فرنسا، خصوصاً عندما تتوتر، لكنها خافت من أن لا تعجب فكرتها جوزيف.

قالت له مازحة:

- **Monsieur l'agent** هل تدخن الحشيش؟

- دخنت عدة مرات نعم... لكني لا آبه حقاً... لا بل أكثر من ذلك... أجد أن الذين يدخنون الحشيش... أتكلم عن مجتمعنا لا عن فرنسا... أجد أنهم يقومون بذلك فقط للنكاية والتشفي... هل معكِ حشيش؟!

- نعم... ترك لي أبي القليل...

- أبوك يعطيك الحشيش؟ هئ هئ هئ... لو ذكرت كلمة حشيش فقط أمام أبي، لفصلني من البيت. نحن شعب معقد حقاً...

ارتاحت ماريا قليلاً بعد السيجارة. أخذت ترتشف من زجاجة البيرا، ثم تحدثت إلى جوزيف باختصار عن صديقتها الفرنسية التي انفصلت عن زوجها. قالت:

- أمر غريب حقاً... يخونها منذ أربع سنوات مع نفس المرأة. لديه حياة ثانية مخفية، وربما لديه أطفال... من يعلم؟ هذا كله ممكن... تخيّل، قال لها إنه يخونها لأنها لا تثيره بما يكفي... هذه ضربة موجعة... أنا لا أفهم بتاتاً هؤلاء الرجال...

- عن أي رجالٍ تتكلمين؟

- عن هؤلاء الذين يكتشفون الحب الأخرق بعد إنجاب الأولاد...

- إن كان لا يحبها فلمَ يبقيان سوياً؟ لا أريد أن أدافع عنه... ربما قال لها إنها ليست مثيرة في جو من التوتر...أو إني مخطئ؟

- لا أعتقد أنّ... إسمع... أنا أعرف ناتالي عن ظهر قلب. أعرفها منذ سنوات طويلة. إنها لا تناقش أساساً إن لم يكن النقاش عقلانيّاً. لا أعتقد أنه قال ما قاله عن غير قصد... المسكينة ضحت بكل شيء من أجله. هل تعرف؟ لقد تركت الجامعة ثم العمل كي تكون معه وتربّي الطفلين. ستحتاج إلى بعض الوقت قبل أن تتخطى هذه الكبوة.

ارتاح جوزيف في خلال الحديث. شعر أن ماريا متبحرة في ذلك العالم الذي يجهله تماماً. اخترع صديقاً وهمياً له، سافر إلى سويسرا، كان مرتبطاً بصبية من قرية مجاورة منذ سنتين، ثم انفصلا. في الواقع كان يتكلم عن نفسه وعن مشكلته مع خطيبته، لكنه وصل بقصته التي يرويها لماريا إلى حيث لم تصل به التجربة مع منال بعد.

أصغت ماريا بكل هدوء إلى ما كان يقول:

- كانت علاقتهما محدودة جداً من الناحية الجنسية. صرت تعرفين قواعد العلاقة هنا... هنا أقصد في عكار... في بيروت قد يكون الأمر مختلفاً... الغريب أنه لم يحصل أيّ تغيير بينهما بعد أن شاركته

السرير... كأنه لم يكتشف ما كان ينتظره أو لم يشعر بشيء جديد... أضيفي أنه كان يقول لي دائماً إنها لا تثيره البتة... أو تثيره قليلاً كي لا أحرّف كلامه. لكنه كان ينتظر أشياء أخرى... ربما يكون الجنس نوعاً من الحظ في نهاية المطاف. من يعرف؟

- تريد أن تقول كيمياء؟ لا أحد يمكن أن يجزم إن كان كيمياء أم لا. أنا شخصيا لا أؤمن كثيراً بهذا القول، بل أعتقد أن العلاقة نوع من البناء. وكيف انتهت قصة صديقك؟

- تهرّب منها... وخانها في مرات عديدة حتى بعد أن تشاركا السرير. كان يقول لي دائماً إنه لا يشبع من الجنس، كأنها حاجة مرضية لديه... أقول لكِ، كان يمضي أيامه في الماخور مع الأوكرانيات، ولا يرتوي.

- هناك أوكرانيات في عكار؟

- لا لا... في بيروت...

- آه... برأيي هناك رجال من هذا الصنف. يفضلون الوصول إلى اللذة وحدهم من دون شريكتهم... هذا خيارهم، لكني لا أفهمهم بتاتاً، ربما لأني أنا نفسي يمكنني أن أناقش بكل شيء يتعلق بالجنس... إسمع، من الجيد أن نقاشاً فتح بيننا. هل تعرف؟ عندما كنا في الجبل في ذلك النهار، شعرتُ بالضيق الذي كنتَ تشعر به...

أراد جوزيف أن يقاطعها لكنها طلبت منه أن يدعها تكمل كلامها:

- لا تزعل مني، لكن لا يمكنك أن تخفي ذلك عني... أنت لم تكن مرتاحاً يا جوزيف، ولكني لن أضغط عليك حتى تخبرني بالسبب. ربما أنت نفسك لا تعرف الجواب. لكن أريدك أن تعلم أني مستعدة لسماعك متى شئت...

- لا أعرف لماذا تتحدثين عن هذا الأمر، بالنسبة لي كل شيء كان على ما يرام... لقد كنا فقط على الأرض، ولم يكن الأمر مريحاً كما في السرير...

- حقاً؟ وماذا تقول عن نظراتك التائهة؟ عن خوفك الواضح وقلة تجاوبك؟ عليك أن تقر بأنك، أحياناً وليس دائماً، تقوم بما ترغب به ولا تنظر إلى الآخر كثيراً... هذا صحيح لا؟... يا محتال! لا أريد أن أكون فظة، لكن من الواضح أنك تشغل بالك... أتساءل إن كان هذا الأمر لا يجعل منك شخصاً مقيداً، كأنك لا تترك نفسك طليقة. ماذا رأيك؟

- أنا لست ذاك المتمرس مع النساء وفي العلاقات... هذا صحيح. ربما كان بالي مشغولاً فعلاً أثناء العلاقة كما تقولين، لكني لم ألاحظ الأمر، خصوصاً معك.

- أتراك تظن أني لا أعرف؟ أو أني لم أكن لألاحظ الأمر؟ لا أعرف لمَ أشعر الآن برغبة كبيرة في

أن أقول لك بعض الأمور، لكني أتساءل إن كان هذا من واجباتي حقاً... نحن لا نعرف بعضنا جيداً، ولا أريد أن أبدو بموقف الواعظ الذي يعطي دروساً مجانية، كما أني، من جهة ثانية، أخاف من أن تغضب مني...

- لا لا أبداً... قولي ما تشائين.

- هذه الفكرة خطرت لي منذ المرة الأولى: الجنس ليس سهلاً كما تظن. هل أنت موافق؟ أي هل تقر أنك تعتقد أن الجنس سهل؟

- بصراحة لم أطرح هذا السؤال على نفسي أبداً. من الممكن أن يكون هذا صحيحاً. صديقي السويسري مثلاً كان يجد الجنس مع صديقته صعباً... وكان يقول إن سبب ذلك يعود لمشاعره. لو أنه لا يكن لها المشاعر الطيبة، لكان الأمر أسهل حتماً! ما رأيك؟ أي إننا نحن الرجال، نفضل الشراميط لأننا لسنا مجبرين بهن بعد الجنس...

- قد يكون ما تقوله صحيحاً بعض الشيء... صمتت برهة تفكر ثم أضافت: لا أدري إن كنت تفهم ما سأقوله. أنا شخصياً لم أتمكن من الشعور باللذة والحب لو لم أتخطَّ حاجز الخوف. كنت في الماضي أمثل الرعشة كي أرضي الطرف الآخر وكي أبلغه بطريقة أو أخرى أني سعيدة. تخيّل هذا الهراء! لحسن حظي أدركت أن الأمور لا يمكن أن تدوم بهذا الشكل.

- وكيف خرجت من هذا المأزق؟ أصلاً ما علاقة الخوف بالأمر كله؟

- هو في الحقيقة ليس مأزقاً. الجنس يتطلب وقتا وجهداً... من حسنات العلاقة أنها تكشف، على حد سواء، عن الأمور الإيجابية والسلبية لدينا. هشاشتنا تأتي في أعلى لائحة الاكتشافات. يجب أن لا نخاف من الاعتراف بضعفنا خاصة مع الشريك، فهذا يكسبنا حرية معينة ويريحنا أيضاً. برأيي علينا أن نتعايش مع هذه الهشاشة كوننا بشر... لا أعرف إن كنتم هنا، حسب الطريقة التي تتربون بها، تخافون من الكشف عن نقاط ضعفكم، خصوصاً أنتم كرجال يعني... لا أدري إن كان ثمة صحة في رؤيتي لمجتمعكم.

- ربما...

- إيه... أترى؟ لا أحد معفي من الرغبة.... كوننا بشراً، كلنا نحمل "تابو" معيناً يقابله "فانتاسم" معين... يجب دائماً أن نتكلم عن الأول كما عن الثاني ويجب ألا ندفنهما فهذا لن يساعدنا أبداً.

سأل جوزيف:

- ماذا تقصدين بفانتاسم؟

ظنت ماريا أنه فهم معنى المفردة فقالت:

- لا أحب أن أتكلم كثيراً عن تجاربي، لكن من الواضح أن العلاقات أسهل في فرنسا منها في لبنان... خصوصاً هنا في "بخش طيز" البلاد **le trou du cul du pays**... صحيح أني لا أعرف سوى قرية ميم، أضافت ضاحكة، لكني أشعر أن الأمور أكثر تعقيداً هنا. منذ فترة ليست ببعيدة أدركت أن جزءاً من سعادتي موجود في جسمي... في عمر المراهقة كنت أردد عبارة تجعلني أشعر بالخجل الآن. كنت أقول إن الرجال من كوكب المريخ، بينما النساء من كوكب الزهرة.

- ما علاقة كوكب الزهرة بموضوعنا؟

- فينوس... ألم تسمع قبلاً بفينوس؟ إنها رمز الحب والإغراء والجمال.

- الزهرة ذَكر بالعربية!

قهقه الإثنان ثم تابعت ماريا تقول:

- كنت مقتنعة بأن النساء، على عكس الرجال، يحتجن إلى الأحلام أكثر، إلى الرقة والرومانسية... الآن أقترب من تلك القناعة التي تقول إن الرجال والنساء من المريخ... ها ها... الفانتاسمات لا حدود لها. كلنا لدينا رغبات وشهوات، والشهوات غالباً ما تكون سوداء... لذا حذارِ منها! جرعاتها تختلف عند الناس، وقد ترهق أولئك الذين يجرون خلفها دونما حكمة...

التفتت ماريا نحو جوزيف، وضعت زجاجة البيرة أرضاً ثم قالت مبتسمة:

- أنت مثلاً، بماذا تحلم؟ بماذا ترغب؟ أكيد عندك رغبات جامحة!

راودت سلسلة من الأفكار رأس جوزيف لكنه خاف أن يتكلم. احتال قائلاً:

- لنعد إلى البيت، سأقول لك كل شيء هناك...

تركا زجاجتي البيرة التي شرباها على السطح، ثم انطلقا مغادرين باتجاه قرية ميم. وبينما كانت السيارة تخرج من مفترق بيت جوزيف سُلط عليها ضوء مصابيح سيارة أخرى. ورأى سائقها، الذي لم يكن سوى والد منال، بوضوح الرينو **18**. إنها سيارة جوزيف، وهناك صبية بقربه. وظن أيوب في بادئ الأمر أن تلك الصبية لم تكن سوى ابنته منال، فأسرع ليرى إن كانت هي حقاً، لكنه لم يتمكن من اللحاق بهما.

في الواقع، جزع جوزيف ما إن سلطت المصابيح ضوءَها على السيارة، فهو يعرف أن هذه طريق فرعية لا يسلكها سوى أهل القرية. شغّل، بردة فعل خارقة السرعة، الموسيقى البدوية الصاخبة، وانطلق يقود كمجنون، بينما أخذت ماريا تصفق، هازة كتفيْها مقلدة الراقصات.

تمددا في البيت على السرير يتبادلان القبل. شعرت ماريا كما في المرة الماضية أنه مستعجل على البدء بممارسة الجنس. يريد أن ينتقل مباشرة إلى الجنس. حاولت بسلاسة أن تهدّئه لكي يتقدما شيئاً

فشيئاً لكنها فشلت. إنه لا يجد لذة بتلك النعومة. ثم أخذ بعد أن نزع عنها ثيابها، يطالبها بتغيير وضعية جسمها، وكانت تتألم أحياناً بسبب الوضعيات. هذا جمباز وليس جنساً، والغريب أنه هو نفسه لم يكن مرتاحاً في تلك الوضعيات. لقد لاحظت سريعاً أنه يتصرف كأنه ممسوس، أو كأن شخصاً آخر يتقمصه... ثم حلت تلك اللحظة حيث ومضت فكرة لديها، فكرة لا يمكن سبر عمقها، تقول إنه يتصرف كما يتصرفون في أفلام البورنو. لقد أزعجها هذا الأمر كثيراً وشعرت بالإهانة، لكنها، لسبب غير مفهوم، لم تتخذ قراراً بإيقاف العملية في وسطها.

أما هو فكان شديد الإهتياج، جسدياً وعقلياً. لم يكن يأبه لمشاعرها ولم يشعر إنها تتألم. كانت شهواته تعصف به، فحاول غير مرة مضاجعتها من الخلف، فتمنعه. أضف إلى ذلك أن أفكاراً غريبة بدأت تراوده، جعلته يرى نفسه بموقع جلاد يتلذذ بضحيته، بينما هو في الحقيقة أسير تلك الأفكار لا أكثر.

ثمة ذاكرة طويلة من الألم تمنعه عن الحب.

تهاوى جوزيف على السرير وغط في نوم عميق. الرحلة بين جوزيف الطيب الذي لا يحمل كرهاً لهذا العالم وأهله، الذي يتحدث عن الحشيش معتبراً إياه شيئاً تافهاً، وجوزيف الذي يرى في تدخين ماريا سيجارة سبباً إضافياً للتهيّج ولنعتها بالعاهرة بينما كان يمارس معها الجنس، هذه الرحلة طويلة وشاقة عليه. بذلك، انتهى يوم ماريا كما بدأ في الفجر. كان يوماً بائساً حقاً.

١٠

وصلت مجموعة من الفرنسيين ظهيرة الإثنين إلى بيت مطانيوس غريب. صبيتان شديدتا الشقار، يبدو للوهلة الأولى أنهما توأمان، وسيدة ستينية على الأرجح هي الأم، يرافقهن رجل نحيل وطويل، مرّوس الذقن قليلاً، ومعهم طفلان لم يتجاوزا السادسة، يحمل أصغرهما دمية على شكل بطريق. أنزلوا حقائبهم الجلدية البنية والسوداء الضخمة من سيارتيْ الأجرة وسيارة مطانيوس القديمة التي لا يخرجها من الكاراج إلا في المناسبات الخاصة جداً.

وصلوا للتو من بيروت.

انهمكت زوجة مطانيوس غريب منذ الصباح ترتب الحديقة وتعقد زهور النرجس في الأحواض في باقات كما تعقد أمّ ضفائر صغيرتها. شذبت بضعة أغصان يانعة من شجرة الغار المزروعة وسط الحديقة، صنعت منها قوساً زينته بزهور الغاردينيا، ونصبته أعلى العتبة، فوق الدرج الحجري المؤدي إلى المنزل. شرّعت نوافذ البيت بعد تنظيفه، وأشعلت أعواداً معطرة برائحة العنبر.

من النادر جداً أن يجد المرء سيدة على هذا الهوس بالأزهار والروائح، ويشاع أنها يوم قبلت الزواج من مطانيوس غريب، اشترطت عليه بيتاً فيه حديقة كي تزرع فيها الغاردينيا والكولونيا، فلا تنقطع رائحة العطر على مدار اليوم.

خرج أهل البيت للقاء الفرنسيين، ثم أنزل مطانيوس غريب من سيارته علبة خشبية كبيرة، وحملها بتأن بمساعدة أحد أبنائه. كانا يمشيان كأنهما يحملان كنزاً. ما إن وضعاها على الطاولة خارجاً، حتى تحوم الجميع حولهما، وراحوا يتفرجون على مطانيوس يخرج منها غراموفون ضخماً، ذهبي البوق له قاعدة خشبية خضراء اللون، ويجرب الأسطوانات التي اشتراها معه.

على هذا النحو انقضى النهار، فلم تتوقف التحضيرات في بيت مطانيوس غريب، بحيث كانت رائحة المأكولات تدغدغ أنوف المارين على الطرقات.

نزع نجيب عنه ثياب العمل، استحم وجلس إلى المائدة يتعشى عندما طرق الكاهن الباب. كان سعيداً يأكل من منتجات حقوله، ويقول لزوجته إن موسم البطاطا هذه السنة ممتاز، وإن البطاطا لا تزال نضرة على حالها رغم مضي وقت على اقتلاعها.

دخل الكاهن عابقا متجهم الوجه قاطعاً على نجيب ملذاته. جلس جوزيف الراعي يسأل عمّا يحدث بين نجيب وأيوب وكان مصراً على أن هناك حلقة يجهلها. يحمل الكاهن نفسه قسطاً من مسؤولية ما،

لا يزال نجيب يجهلها، لأنه لم يقدر خطورة الأمور حينما وقعت المشادة بين الرجلين بعيد القداس يوم أمس. وكان نجيب في البدء متعجباً يقول إن لا شيء مخفياً عنه، فيما زاد الأخير من تأكيده، الأمر الذي وتر نجيب سريعاً، فقال بنبرة عالية:

- مجرد تفاهة يا أبونا!... يوم الجمعة الماضي عرض الصبي على منال تأجيل العرس ولم يسألنا... وبعد أن شرفنا أبو ربيع بزيارة، تكلمنا مع جوزيف... هذه أمور تحدث... أبو ربيع يريد أن يعمل من الحبة قبة، ونحن لسنا نوافقه في ذلك... غداً يعود جوزيف من الخدمة، وتنحل الأمور. القصة لا تحتاج إلى الكثير!

أجاب الكاهن بنبرة لئيمة غير مبررة:

- لكن ليس هذا ما يقوله العقيد!

انزعج نجيب عندما سمع كلمة عقيد، ثم قال في نفسه يكلم الكاهن: إيه كفى كفى هراءً وكلاماً فارغاً... عقيد! هه! تقاعد منذ أربع سنوات ولا تزال تسميه عقيد. العمى ما أسمجك!

أضاف يسأل بصوت عالٍ:

- أقول لك... جاء إلى هنا وتكلمنا في مسألة العرس...

- يا نجيب ... إنسَ العرس... يقول إنه رأى جوزيف برفقة واحدة أخرى يوم أمس... في بيته فوق. واتصل اليوم بي وطلب إلغاء العرس...

صُدم نجيب وصاحت زوجته صيحة كتمت آخرها:

- شووووو؟

استجمع أفكاره سريعاً ثم قال بعصبية:

- أيّ بيت يا أبونا؟! كيف تسمح لنفسك وأنت كاهن القرية أن تردد ما يقوله هذا الأهبل؟... هذا حكي فاضي... جوزيف في الخدمة!

- أعرف يا نجيب أعرف... إهدأ قليلاً... هو لم يدعني أتكلم، هل ستفعل مثله؟! يا أخي ما بكما؟... والله يحتار المرء في أمركما... هل تريدان أكل العنب أم قتل الناطور؟

أضاف الكاهن مفكراً يحدق في الفراغ:

- هو يعرف أنه في الخدمة، لكنه مقتنع أنه...

نظر الكاهن إلى أم جوزيف التي تسمرت عند عتبة الباب وتردد قليلاً. كأنه أراد أن يقول كلاماً نابياً وغيّر رأيه. أضاف:

- يقول إنه رآه عند الحادية عشرة تقريباً... بالأحرى رأى سيارته... وأنا سألته أكثر من مرة إن كان

متأكداً من أن جوزيف هو الذي كان يقود السيارة... والله يا نجيب، والله حاولت... لكنه كان ثائراً غاضباً. ولو فكرنا بالأمر بطريقة منطقية، لا يعقل أن تكون كل هذه تمثيلية هاه؟!... لا تزعل مني...

انزعج نجيب من كلام الكاهن كثيراً لكنه لم يرد فتح جبهة معه. ليس الوقت مناسباً الآن. وقف مجدداً ثم طلب منه انتظاره ريثما يبدل ثيابه فيذهبان معاً إلى منزل أيوب ويضع كل منهم ما لديه على الطاولة. استوقفه الكاهن قائلاً إنه زار منزل الأخير بعد تلقيه الإتصال مباشرة على أمل تدارك الموقف خصوصاً وأن أوراق الزواج أرسلت إلى المطرانية وربما وقّع المطران عليها.

يعرف الجميع كيف هي طباع المطران... فلو أنبِئ سيّدنا بإلغاء العرس، فلا مفر من عظة طويلة عبر الهاتف، هذا إن لم تكن تلك بهدلة لا عظة. أضاف الكاهن وعلامات الحيرة بادية في نظراته الفارغة، أنه لم يجد أحداً في منزل أيوب. لا الأولاد ولا الأهل. أخبره الجيران أنهم رأوا العائلة تنقل حقائب كبيرة ومتاعاً إلى السيارتين بعد الغداء، وأن الجميع غادروا.

صاح نجيب خارجاً عن طوره:

- إلى أين!؟

قال الكاهن إنه لا يعلم شيئاً. أيوب لم يرغب بقول الكثير عبر الهاتف. ثم بلّغ نجيب بنبرة جدية وهادئة أنه مستعد أن يكون عراب صلحة بينهما، فلو ألغيَ الزواج ستقع بلبلة في القرية لا أحد يعرف متى تنتهي، وهو أمر لا يحبذه أي كاهن في رعيته. سيصطف الأقرباء ضد الأقرباء وستنقطع علاقات كثيرة وتكون وجعة رأس تدوم طويلاً. قال ذلك ثم هدد بطريقة غريبة وغير محسوبة قائلاً إنه إذا لم يكن نجيب ناوياً فعلاً على هذا الزواج، فمشروع الصلحة سيكون مضيعة للوقت.

لم يدرك نجيب أن الكاهن استعمل لغته الخشبية مع أبي ربيع أيضاً، فظن أن رجل الدين يفضل الأخير عليه. وهكذا، خرج الكاهن من البيت في جو شديد التوتر، فكاد نجيب أن ينفجر بوجهه خصوصاً أن ما سمعه منه في آخر الكلام لم يسره.

تناول السماعة فوراً واتصل بجوزيف. كان غاضباً وثائراً، لكنه في نفس الوقت كان على يقين أن ادعاء أيوب مجرد افتراء:

- ألو... بابا، قل لي... هل تكلمت مع منال بعد سهرة الجمعة؟

أجاب جوزيف ببرودة:

- لا... لماذا تسأل؟

- لا؟ ما حكيتها؟ أترى هذا الأمر طبيعياً؟... ألم تهاتفها، أبداً أبداً؟

- بابا ما بكَ؟

- خلص الآن... قل لي، أين كنت مساء أمس؟

تذكّر جوزيف فجأة لحظة أضيئت مصابيح السيارة في وجه سيارته بينما كان يخرج من مفترق بيته برفقة ماريا. شعر أن سرّه انفضح. أجاب بسؤال:

- أين كنت؟ كنت في العمل... ما هذا السؤال؟! ماذا هناك؟

- لم تأت إلى القرية يعني....؟

- القرية؟ لا يا بابا، أبداً... من يقول هذا؟

- اليوم اتصل والد منال بالكاهن، وطلب منه إلغاء العرس... يبدو أنه رحل مع عائلته بعد الظهر... هل تعرف شيئاً؟ هل هم مدعوون إلى مناسبة ما في بيروت يعني؟

لم يصدم النبأ جوزيف. لامبالاته الشديدة جعلت نجيب يغلي. من دون وعي تراءت له فوراً صورة ماريا. هكذا بلمح البصر بدّل في ذهنه صبية يربطه بها مشروع زواج بأخرى تعرف بها منذ وقت قصير. إنه يرغب بشيء جديد، بجسد آخر قد يتيح له تحقيق ملذاته الضائعة، وقد تكون ماريا خير بديل من منال. إن المرء لا يبالغ بقوله إن مشاعر جوزيف تجاه خطيبته نضبت وأنه أقنع نفسه منذ فترة طويلة أن باستطاعته تحقيق ملذاته وحيداً. لا أمل له في أن يعيش انفصالاً عاطفياً كما يستحق أن يُعاش، لذا يبدل النساء كما يبدل جوربيْه. لا بل إن شأن منال في هذه اللحظة بالذات لا يعنيه بشيء على الإطلاق. إنها مجرد فرض عائلي لا يريد الاستمرار فيه.

مع ذلك حاول طمأنة أبيه قائلاً:

- لا أبداً... لا أعرف شيئاً... على أي حال... مهما يكن... سأحاول الإتصال بها وسنتكلم في الموضوع عندما أرجع إلى البيت غداً.

قال نجيب فاقداً صبره:

- مهما يكن؟ ما هذا الذي تقوله؟! اتصل بها فوراً مفهوم؟!

وأقفل الخط.

فقد نجيب سبيله إلى النوم وتلاعبت به الوساوس. هاتف ابنه الذي أبلغه أنه لم ينجح في الاتصال بمنال. إن اللامبالاة التي يظهرها جوزيف تجعل من إدعاءات أيوب أكثر واقعية. استقل نجيب سيارته وتوجّه إلى بيت ابنه. لم يكن في باله أي مخطط أو فكرة واضحة. أراد فقط الذهاب إلى هناك، كأن تلك الزيارة صارت هاجساً لديه.

فور وصوله، ترك مصابيح السيارة مضاءة، ثم ترجل منها وتجول داخل العمارة. صعد الدرج حتى وصل إلى السطح، حيث رأى قنينتيْ البيرة اللتين شربهما جوزيف وماريا، الواحدة بجانب الأخرى.

حمل إحداهما، اشتمهما، ثم تأكد من أن الإثنتين فارغتان تماماً. حاول أن يتذكر آخر مرة أتى فيها إلى هنا، وتهيأ له أنه جاء منذ يومين أو ثلاثة بالأكثر:

- هه! جديدتان!

عاد إلى القرية وتجادل مع زوجته. أخبرها عن زجاجتي البيرة فأبدت امتعاضها. بالنسبة لها هذه تفاصيل تافهة. ذكّرته بأنه كان عليه أن يجبر جوزيف على زيارة منال ومصالحتها الأحد صباحاً، فجن جنونه وحاول إفهامها أنه لم يعد يجوز معاملة ابنه مثل طفل مُحفض، وأن تحميله المسؤولية هو وحده أمر لا يقبل به أبداً. وبينما كانا يتجادلان في الصالون وصلتهما رائحة قوية وقذرة طغت على رائحة لَكَن القريش الذي وضع وسط صالة السفرة.

حاولا تحديد مصدر الرائحة، فتوجهت هي إلى المطبخ تنظر تحت المجلى وفي سلة المهملات، بينما فتح هو الشباك وأخذ يراقب الجورة الصحية. صرخت هدى من الداخل في توارد واضح للخواطر بين الإثنين:

- هذه رائحة الجورة يا نجيب!

نزل الدرج حاملاً مصباحه. دقق قليلاً، فلم يجد ما يثير الشك. عاد إلى البيت والرائحة لا تزال قوية. وفجأة راحت هدى تتفحص أرضية المنزل، فوجدت آثار غوط. عندئذ فقط نظر نجيب إلى أسفل حذائه ولم يلبث أن خرج هارباً منها.

ذرع طرقات القرية ذهاباً وإياباً، مشغول البال. كان التيار الكهربائي مقطوعاً، وطرأ عطل على مولد الإشتراك، فغرقت القرية في ظلام دامس ناسبه، ذلك أنه أراد المشي من دون أن يشعر أحد بوجوده. ولحسن حظه كان معظم القرويين قد خلدوا إلى النوم في تلك الساعة المتأخرة.

يحسّ نجيب بشيء من الطمأنينة كلّما مرّ أمام بيت مطانيوس غريب، فقرر أن يستريح قبالة المنزل. جلس على درج الكنيسة في الظلمة الحالكة، يدخن ويتفرج على الفرنسيين الذين نزلوا في ضيافة مطانيوس غريب، يشعلون قناديل صينية بيضاء ضاربة إلى الحمرة، يحملونها لحظات فتنتفخ مثل البالونات، قبل أن يطلقوها في السماء فتطير نحو الشرق، في اتجاه قرية عيْن. وكان مطانيوس غريب وضع الغراموفون بجانب الجماعة وشغل موسيقى فرنسية خفيفة وارح من لحظة إلى أخرى يراقص الكلّ بدوره متمايلاً مع النسيم الخفيف.

شاهد نجيب ربة البيت تخرج من الباب حاملة صحوناً صغيرة من تلك التي تقدم فيها الحلوى، فساعدها بعض الأطفال السهارى معهم بترتيب الطاولة. كانت تلوم مطانيوس لأنه يرقص ويشرب ولا يقدم لها العون. وكان الطفل الفرنسي الصغير الذي لم يفارق دمية البطريق منذ الصباح يصرخ مشيراً

إلى القناديل المشتعلة الطائرة مردداً كلمة نجمة بالفرنسية، فتصحح له السيدة الفرنسية الستينية لفظه للكلمة.

ربما كانت تلك اللحظة هي اللحظة الوحيدة التي استطاعت انتشال نجيب من تفكير طويل أرهقه، فعاد إلى بيته منتظراً عودتين: النوم وابنه. في العاشرة صباحاً، وصل جوزيف إلى القرية معكر المزاج. كان هائجاً يقود كأرعن، وكاد أن يقع حادث سير بينه وبين مطانيوس غريب وهو يرجع سيارته القديمة من الكاراج إلى الطريق. ضغط جوزيف على فراملة بقوة منحرفاً بسيارته إلى الجهة الأخرى، صادماً الحائط بشكل خفيف. ترجل مطانيوس غريب من سيارته، تفقد إشارة سيارة جوزيف التي انكسرت، ثم قال له الحمد لله على السلامة، وعرض خدماته عليه. استدرك مطانيوس، الرجل المتعلم والمثقف، استدرك المشكلة قبل وقوعها رغم خوفه على جوهرته وعلى الصبيتين الفرنسيتين فيها، ورغم عصبية جوزيف الواضحة.

يعود السبب في ثورة جوزيف إلى ماريا. اتصلت به صباحاً طالبةً منه عنوان بريده الإلكتروني. كانت قد أمضت ليلة بأكملها تكتب له رسالة تشرح فيها رغبتها بعدم لقائه مجدداً في الوقت الراهن، ثم غيرت رأيها في آخر لحظة، وعزمت على رؤيته مرة أخيرة، فاتصلت به ثانيةً ودعته إلى التنور للقائها، فذهب إليها وهو لا يدري ما يدور في رأسها.

ركن السيارة بجانب التنور ولاحظ أن هناك سيارة ثانية هي سيارة زميله مصطفى. كان باب التنور مواراباً. اعتراه شعور بالغضب واستغرب أن يكون مصطفى موجوداً خصوصاً وأنه مأذون اليوم. ما إن ترجل من سيارته حتى شاهد مصطفى يخرج من التنور زارعاً سيجارة في فمه. حياه مصطفى مبتسماً له بخبث، ثم ركب سيارته وغادر. دخل جوزيف الغرفة الصغيرة، فوجد ماريا تحاول بصعوبة إغلاق النافذة الحديدية. لم يساعدها بل سأل بعصبية ملحوظة:

- ماذا يفعل هنا؟

- هه! وكأنك لا تعرف...

- لكن التنور مطفأ!

- نعم نعم... لا يأتي من أجل المناقيش دائماً... ليس هذا اكتشاف القرن لا؟

- آه... بالطبع... وأنت تفتحين له الباب وتستقبلينه... هاه؟

- وما دخلك أنت لمن أفتح بابي أنا؟ أنت تعرف جيداً أني لم أدعُ أحداً غيرك، وأرجوك ألا تكثر من الكلام فلست بمزاج للسجال معك...

- طيب طيب... لا تغضبي... أين جدتك بالمناسبة؟

- جدتي ليست بحالة جيدة... الفحوصات الطبية لا تنبئ بالخير... إنها في المشفى مجدداً... قلت بما أن البيت مليء بالناس، قد يكون من الأحسن أن نلتقي هنا...

- أتريدين أن نذهب في جولة بالسيارة؟

- لا لا ... لن أطيل الكلام ولا البقاء هنا... قد يعود ذلك الأحمق مصطفى مجدداً...

صمتت ماريا برهة. يكتسحها حزن عميق. اتكأت على حافة التنور ثم قالت بعد زفرة:

- لقد فتحت موبايلك عندما كنت نائماً عندي. وصلتك في الليل عدة رسائل أزعجتني... هذه ليست حركاتي أنا، ولا أعرف لمَ قمتُ بهذا الأمر. ربما قمت بتلك الحماقة لأن يومي كان مرهِقاً وطويلاً...

قدّر جوزيف أنها قرأت رسائل منال. وكانت تلك رسائل مكتوبة بلغة التشات، أي باللبنانية التي يكتبها البعض بأحرف لاتينية، ومن الصعب جداً فك شيفرتها. فسألها:

- أتبادل بعض الرسائل مع صبية من المنطقة لكن لا شيء...

- إسمع... لا أعرف من هي منال هذه التي راسلتك غير مرة في تلك الساعة المتأخرة. لم أفهم شيئاً من رسائلها العجيبة... إنما لم أطلب رؤيتك من أجل هذا الأمر.

- من أجل ماذا إذن؟

- لقد رأيت صوراً وفيديوهات من البورنو مكدسة على الهاتف... أنت لا تملك صورة واحدة لك أو لعائلتك أو حتى لهرّك... جهازك مليء بالأوساخ...

أراد جوزيف أن يعترض فرفعت سبابتها بوجهه محافظة على هدوئها:

- دعني أنهي كلامي، ثم قل ما شئت... لقد قررت المضي بحماقتي في تلك الليلة حتى النهاية... ربما تكون ورطة ناتالي صديقتي هي التي حثتني على ذلك... لم أرد أن أعاشر رجلاً لا أعرف عنه الكثير. راجعت ذاكرة الإنترنت على الهاتف، وأنا فعلاً مصدومة بالوقت الذي تمضيه أمام أفلام البورنو... كل ساعتين يا جوزيف؟ كيف تعيش؟ كيف تأكل كيف تعمل؟ إن كنت تستمني في كل مرة تشاهد شريطاً، فهذا يعني أنك... حتى البورنو لديك ليس عادياً... ما هذه الفيديوهات القذرة؟ ما هذا الـ"غانغ بانغ" أصلاً؟! هل أنت مدرك لتأثير هذه الفيديوهات؟

ابتسم جوزيف ابتسامة صفراء.

أضافت ماريا:

- لا أريد أن تفهم الأمور كما يحلو لك... ثمة شيء غاية في الأهمية بالنسبة لي... إن كنت أقول ما أقوله الآن فلأني أريد الأفضل لك... لا أريد أن أحكم عليك أبداً... أنت ولدت في مكان لا أعرف عنه الكثير...

لام جوزيف نفسه في تلك اللحظة لأنه لم يضع كلمة سر للتلفون.

قالت ماريا:

- منذ بضعة أيام كنت أفكر بدعوتك إلى مدينة كاركاسون في فرنسا. القلعة الكبيرة جميلة جداً، وصدّق، هناك أوجه شبه بين الأزقة في قرية ميم وفي مدينتي. لقد تخيلتك غير مرة في شقتي... ولا أريد أن أقطع الأمل نهائيّاً. هذا كل ما لديّ الآن... أعرف أنك قد تشعر بخيبة لكن لم يكن باستطاعتي أن أبقي الأمر لنفسي...

نظرت إليه منتظرةً منه أن يتكلم. فقال بعد صمت وجيز:

- إسمعي... قد لا تصدقين ما سأقوله الآن، لكني سأقوله بما أن لا شيء عندي أخسره.

رفعت ماريا حاجبيها هنيهةً إشارةً إلى امتعاضها من عبارته الأخيرة.

تابع جوزيف قوله:

- اشتريت هذا الهاتف منذ أيام، حتى أني لم أبحث فيه بعد لأرى ما حُمّل عليه... لا أريد أن نتوقف عن التلاقي... أنا سعيد بك.

- لا أشك أنك سعيد، وأنا كنت سعيدة أيضاً... لكن المشكلة ستبدأ عاجلاً أم آجلاً... ما أريد قوله فقط هو أنني أشعر بقلق ينهشك ولا أريد أن أتورط مرة أخرى ب-...

توقفت عن الكلام برهةً ثم أضافت:

- يجب أن ترى طبيباً... هناك أطباء يعملون في هذا المجال يسمونهم "سكسولوغ" يعني أطباء جنس...

قال جوزيف منفعلاً:

- لا أفهم سبب اللف والدوران... ألم تعجبك العلاقة بيننا؟ تفضلين مصطفى عليّ هاه؟ هكذا إذن؟ لماذا تتحايلين عليّ وتسمعينني كل هذه التفاهات؟... أقول لك الهاتف جديد وأنت تصرّين على تحميلي كل شيء... إن كنت لا أعجبك، يمكنك أن تقولي ذلك ببساطة هاه!

همّ جوزيف بالمغادرة. أوقفته ثم قالت له بهدوئها المعهود:

- في الوقت الحاضر أفضل أن لا نلتقي... سأعود أنا إلى فرنسا، فتتوضح أفكاري، وأنت ترى ما العمل... أنت يا جوزيف تعيش في حالة من عقدة ذنب، لا أعتقد أنه موجود أساساً... فكّر بالأمر جيداً... سنبقى على تواصل.

لم يكن جوزيف مستعداً لسماع ماريا أكثر من ذلك، ولكنه يعرف أنها محقة. ربما لا تبدو له الأمور على هذا القدر من الوضوح كما تبدو لها، فهو في جميع الأحوال لا يعير المستقبل أهمية كبيرة. كان

يشعر أنه سوف يملّ منها ومن جسدها عاجلاً أم آجلاً، وأنه سيبدأ البحث عندئذ عن امرأة أخرى. وقد ساءه كثيراً أنها اكتشفت سره باكراً إلى هذه الدرجة، ولذلك غادر.

عندما وصل إلى البيت، كان لا يزال يلوم نفسه لأنه لم يضع كلمة سر للتلفون، كأن كلمة السر هي السبب وراء كل ما يحدث له.

وجد أباه وأمه جالسين على الشرفة يسرح كل منهما في أفكاره. هدى تنظف قرون اللوبياء الخضراء، بينما يتسلّى نجيب بتنجير عصا للمعول من خشب الدلب، وبين قدميه كومة من النشارة. وسرعان ما احتدّ النقاش بين الرجلين. ومع أن جوزيف قال لأبيه إنه حاول الإتصال بمنال غير مرة محاولاً طمأنته وكسب سكوته، إلا أنه لم يرد أن يكثر الكلام في هذا الموضوع.

ذهب إلى غرفته قاطعاً الحديث ممّا زاد الأمور تعقيداً. لحق به أبوه حاملاً العصا التي ينجرها وطرق الباب مرتين بعنف. تحدث من خلف الباب عن المطرانية والمطران ومشاكل القرية وإلى ما هنالك. وما إن فتح جوزيف الباب ورأى نجيب شاشة الكومبيوتر مضاءة حتى أدرك أن ابنه لا يريد أن ينام كما قال، إنما أن يلعب.

عندها راح يصيح به:

- مع من كنت في بيتك؟ من هذه التي تشرب معها بيرة؟

قبع جوزيف على كرسي الكومبيوتر مشدوهاً ينظر إلى أبيه، وتدخلت هدى قائلةً:

- بهدوء يا نجيب بهدوء...

ثم همست في أذن زوجها:

- مثل ما قلت لك...

استعاد نجيب هدوءه فوراً. أغلق باب الغرفة وجلس على السرير. اعتذر أولاً من جوزيف ثم قال بنبرة خافتة:

- يا ابني أنت صرت رجلاً وسأكون صريحاً معك... تريد أن تعرج بين الحين والآخر لتقابل واحدة فهذا أمر عادي جداً... أنت شاب وهذا طبيعي... لكن لمَ تجيء بها إلى بيتك؟ رآك أبو ربيع والله وحده يعلم أين أصبح وأين أصبح زواجك الآن؟... يا خيّي بدءاً من اليوم، جِدْ لك واحدة بعيدة عن الضيعة، اركبها قدر ما تشاء... لماذا يأتي الواحد بالدب إلى كرمه؟

- آه لهذا السبب اتصلت بي لتسألني أين كنت؟... الآن فهمت... يا بابا، هيدا أبو ربيع خرفان. ماشي الحال...

- شو ماشي الحال؟ لا شيء ماشي! الأبونا أتى إلى البيت، وجّع لي راسي والعرس انلغى... هل

كلمت منال أم لا؟

- لا لا... لا أريد... آخر همّي... تقول إنهم ذهبوا إلى بيروت؟ إيه درب تسدّ ما تردّ!

سمع بعض الجيران أصوات صراخ وتكسير. وشوهد جوزيف بعد ذلك بنصف ساعة تقريباً ينقل حقيبة كبيرة إلى السيارة. لم يتمكن نجيب من كبح نفسه، فحطم الكومبيوتر، وتدافع مع ابنه، الأمر الذي دفع الأخير إلى مغادرة البيت.

فيما كان ينزل الدرج حاملاً حقيبته، تبعته أمه إلى السيارة فقال لها، في ما ظنته الأخيرة فورة غضب، إنه لا يحب منال ولا يريد أن يسمع بها بعد اليوم.

١١

ثارت اليراعات المضيئة في غضون دقائق قليلة، ثم طارت تلامس بحر الوزال الممتد بجانب الماخور. تطير في أسراب متباعدة وتتوجه نحو الشرق بأعداد ضخمة. تحُوم قليلاً في كل ليل قبالة الماخور، تجمع أسرابها وكأن قائد أوركسترا ينظم حركتها، ثم تتجه إلى الجهة المقابلة من الوادي حيث تجد مرعاها. وقف جوزيف عند النافذة، ينفخ سيجارة ويتأمل تلك المخلوقات. طُرق الباب بعد حين ودخلت ليلى تلبس حمالة صدر سوداء من الدانتيل وتنورة قصيرة جداً. جلست إلى الطاولة وأنزلت ضفائرها الكستنائية فوق نهديها، ثم أخذت تتحسس جسمها، ووراء سبابتها البيضاء الطويلة المختومة بظفر نبيذي طويل ومستقيم، التي تنقّلت من أسفل ساقها إلى شفتها مشى جوزيف ناظرا مبتسماً كأن في آخر الرحلة نوراً.

وبحركة رشيقة قفزت إلى السرير وقالت:

- تعال أرني ما لديك يا حلوي.

مضت الدقائق ساحرة، بلغ فيها جوزيف نشوته وأقصى الملذات التي لم يحلم بها قبلاً. استيقظ وسط الليل في بيته الجديد، أضاء النور ونظر إلى الحائط، وكان لا يزال مأخوذاً برغبة الحلم التي سحقته سحقاً. لم يدم السحر طويلاً، ما إن تلاشى مفعوله حتى تحسس سرواله فوجده مبللاً. اجتاحه حزن عميق وخيبة أمل كبيرة لأن كل ما جرى لم يكن إلا حلماً. خرج بعد ذلك يحمل صابونة زيت ونظف نفسه بمياه الخزان الباردة في الهواء الطلق.

بعد انتقاله للسكن في بيته الجديد صار جوزيف يمرّ بين الحين والآخر ببيت العائلة، وتحسنت علاقته بأبيه تدريجياً، ولكنها لم تعد إلى سابق عهدها. لقد قبِل نجيب بالأمر الواقع قائلاً إن انفصالاً قبل العرس قد يكون أفضل من طلاق بعد التزام، لكنه فضل أن ينقل جوزيف سكنه إلى منزله الجديد. وصار الأخير يمضي مجمل وقته برفقة روبير الذي شعر بشيء من المسؤولية تجاه رفيق السلاح. كانا يبقيان معاً وصارت صورتهما مثل صورة عازبين لا صنعة لهما، يمضيان الوقت متسكعين على الطرقات فيما ينشغل أغلب الرجال الآخرين بأعمالهم وأطفالهم ونسائهم.

في تلك الفترة كانت ماريا قد توارت عن الأنظار كليّاً، ولم يلقَ جوزيف منها أيّ ردٍّ رغم أنه حاول الإتصال بها غير مرة. كان على علم أنها مددت بقاءها في لبنان أسبوعين إضافيين، بهدف إمضاء المزيد من الوقت مع جدتها التي تبيّن أنها مصابة بداء خبيث.

كانت صورتها تراود أفكاره بين الحين والآخر، فيتذكر مباشرةً ما قالته له عن الطبيب وعن حالته فينفعل ويحاول أن يتحرش بها بطريقة صبيانية عبر رسالة على فايبر أو أي وسيلة تواصل أخرى. أما منال وعائلتها، فكانوا قد عادوا من بيروت بعد أن عادت العلاقة بينهم وبين عائلة جوزيف إلى ما كانت عليه قبل زمن الخطوبة. انقطاع دائم.

ذات مساء تحدثت منال إلى جوزيف عبر الفيسبوك وعرضت عليه أن يمحوا علاقة الخطوبة المعلَنة على الموقع. كانت بكامل وعيها، ووافقها الرأي. في وقت لاحق من المساء ذاته، عادت وكلمته، ولكنها كانت بحالة مذرية حقاً هذه المرة. قالت إنها في عشاء في بيت جدها وإنها سكرانة ومستعدة لتفعل كل شيء يريده.

بعد زهاء نصف ساعة على ذاك الحوار، طرقت بابه في بيته الجديد وكانت ثملة. لقد سرقت سيارة والدها وركنتها كيفما اتفق في الوحول بقرب خزان المياه. كانت مضطربة متضعضعة. حاولت بشدة أن تستعيده، وكان جلياً أنها تعذب نفسها، فهي ترى في إصرارها على الحفاظ على عذريتها السبب الأساسي لفراقهما.

بعد جولة من البكاء والترجي جن جنونها، ونزعت عنها ثيابها بمشهد بائس، وراحت تصرخ:

- تعال خذ ما تريد خذ ما تريد!

اختلطت المشاعر على جوزيف، وكانت مزيجاً من القرف والخوف والإشفاق. حاول التخلص منها بأقصى سرعة. وبعد حين خرجا من البيت بعد أن حضر لها فنجان قهوة. كانت قد هدأت واستعادت شيئاً من رشدها، فلازمها شعور كبير بالعار. ثم وقع أمر تافه جداً زاد بؤس الليلة بؤساً. علقت سيارتها في الوحول مما دفع جوزيف إلى الإتصال بالرقيب روبير ليأتي ويقطر السيارة العالقة بالجيب الخاص بقوى الأمن الداخلي، وتنتهي الليلة بهذا الشكل البائس.

في تلك الآونة انحصرت اهتمامات جوزيف بثلاثة يمضي وقته فيها: أولاً الكومبيوتر، يشاهد البورنو وكثيراً ما يستيقظ في الليل ليشاهد الأفلام قبل أن يعود إلى نومه، أو يمارس ألعابه عليه. ثانياً العمل، وأخيراً الماخور. صار يتردد على الماخور بطريقة روتينية، ولكن ظروفه المادية بعد تركه البيت لم تعد تسمح له بالذهاب كلما أراد، ولو أنه كان راغباً في ذلك مدفوعاً بهذا الشوق الغريب الذي لم يفارقه يوماً لتعرف على هذا العالم حيث ظهرت ليلى.

في البداية كان يرافق زميليه أحمد ومصطفى كما جرت العادة سابقاً، ولكن بعد ثلاث زيارات صار يمر وحيداً في طريق عودته من الخدمة أو إليها. أحياناً كان يكتفي بشرب فنجان قهوة وتنفيخ بضع

سجائر، أو بشرب كأس ويسكي، ثم يغادر وفي باله روبير الذي يقدر أنه خير نديم في مثل هذه اللحظات.

يودّ أن يرافقه، لكنه لم ولن يتجرأ يوماً على دعوته.

بعدما توثّقت معرفته بالمكان ومديرته، كثف جوزيف من زياراته. اكتشف سريعاً أن الماخور ليس ماخوراً بالمعنى الحقيقي للكلمة، فليس هناك في الواقع سوى ست لاجئات سوريات، أتين من مخيمات عدة للاجئين السوريين في لبنان. يعشن في ذلك البيت حيث يمارسن الدعارة، ثم يغادرنه أسبوعاً كاملاً في كلّ شهر لأسباب مختلفة. وكنّ يولين تقديراً كبيراً للمديرة، وذلك التقدير، في هذا المكان تحديداً، لم يكن جوزيف يعرف أنه ممكن.

لم تكن اللاجئات السوريات يمارسن الدعارة فقط، بل غيرها من الأعمال الزراعية كالحصاد وقطاف الزيتون أو حتى تنظيف بيوت العائلات الميسورة في المنطقة. وما كنَّ ليزاولن الدعارة أساساً لولا أحوالهن الاقتصادية المتردية، وحاجتهن إلى إعالة أولاد كثيرين خلفهم وراءهم أزواجهنّ، الموتى منهم والمفقودون في سوريا، إضافة إلى إعالة عجزة هاربين من جحيم الحرب ممّن فاتهم العمر ليعاودوا العمل مجدداً.

تجتمع اللاجئات في ليلة واحدة من كل شهر، فتقام حفلة كبيرة نسبياً، تحضرها شلة من الزبائن الموثوق بهم من أصدقاء الماخور بشكل أو آخر. ويحضر هؤلاء للعب القمار وشرب الخمر والرقص وممارسة الجنس، وما إلى هنالك من محظورات أخرى لا يمكن للمرء أن يحظى بها في منطقة ريفية نائية مثل عكار.

تدير شؤون الماخور المضيفة السمينة التي استقبلت جوزيف ورفيقيه في زيارته الأولى، وهي سورية اِسمها سمر، في منتصف عقدها الرابع، استأجرت المنزل من رجل يقطن مع عائلته في طرابلس. كانت سمر تعمل قبل اندلاع الحرب في سوريا في أحد المقاصف في ضواحي مدينة حمص منذ بلغت السادسة عشرة. بدأت سيرتها كعاملة تنظيف وتقدمت بها شيئاً فشيئاً.

في السنوات الأخيرة من مزاولتها العمل، عُيّنت مسؤولة. لم تكن بالمعنى الحرفي للكلمة مديرة في المقصف الحمصي إذ كان هناك رجل يرأسها، لكنها كانت المديرة على العاملات بأي الأحوال، وتمرست بمساعدتهنّ في مشاكلهنّ، وتعلمت واكتسبت خبرة واسعة في هذا المجال، وعلى الأخص في طريقة التعاطي مع الزبائن أو عناصر المخابرات. وها هي اليوم قد نجحت في إطلاق مشروعها سريعاً في مكان يعدّ خطيراً ومكشوفاً إلى حد ما، نتيجة الخبرة التي راكمتها في هذا المجال.

روت سمر كل ذلك لجوزيف في الأوقات التي أمضياها معاً في الماخور. توطدت العلاقة بينهما

سريعاً مع أن سمر ليست من النوع الذي يفتح قلبه وماضيه لجميع الزبائن. لقد شكل جوزيف بالنسبة إليها استثناءً عن الرجال الذين يترددون على مكان مثل هذا المكان الذي تعيش وتعمل فيه، وكانت ترى في وجهه براءة معينة وقلباً نظيفاً، لذلك ركنت إليه وروت له كلّ شيء عن ماضيها. حتى أنها لم تخجل من أن تخبره عن أشياء حميمة جداً، عن عمتها مثلاً، المرأة التي ربتها منذ طفولتها المبكرة، والتي تعيش في طرابلس بأنها تنازع بسبب داء السرطان، وعن صديقيْه أحمد ومصطفى اللذين وصفتهما بمجرد عاهتين وحثالتين وعليه الابتعاد عنهما قدر المستطاع.

لم تكن تعرف حينذاك أنهما زميلاه في قوى الأمن الداخلي. إن سمر اسم على مسمى، هي امرأة تحب الكلام كثيراً، لكنها تفكر دائماً في ما تقول. في ذلك البيت المعزول والمقطوع عن العالم، كان يسعدها ويفرحها مرور شاب مثل جوزيف لا يأتي بالضرورة لممارسة الجنس أو لعب البوكر أو سرد مشاكله الزوجية كما يفعل الكثير من الزبائن.

كانت تقدم له كؤوس الويسكي والبيرة مجاناً في بعض الأحيان. كما أن الثقة التي أظهرتها تجاهه كانت متبادلة، فهو باح لها أيضاً، في وقت لاحق، ببعض خصوصياته بطريقة رأتها ساذجة وبريئة، كانفصاله عن خطيبة مثلاً، وأن الأمر سبّب مشاكلَ لعائلته، وأنه يأتي إلى الماخور للإستمتاع فقط، وأنه دركي جديد في السلك.

تفهمته جيداً خصوصاً عندما كان يحدثها عن علاقته السابقة بمنال وتصميمها على عدم مشاركته السرير قبل أن يلبسا تاجيْ العرس في الكنيسة. وإن تكن سمر قادرة على تفهم الحثالات، فكيف لا تتفهم شاباً لطيفاً مثله؟

الحوار معها كان متعة خالصة. كان الإثنان يجلسان إما في المطبخ وإما على الديوان في الصالون ويتسامران حول كأس ويسكي ويتكلمان عن كل ما يعبر في خاطرهما، لكنها كانت تنتظر أن تتوضح الصورة أكثر، فلا بد من وجود سبب آخر مقنع خلف تردده إلى المنزل.

لا يمكن أن يكون الضجر وحده ما يؤدي به إلى الماخور.

لم تستعجله أبداً. إنها إمرأة طويلة البال، خفيفة الظل، وهي منفتحة، تتقبل النقاش في أيّ موضوع كان، وتتحمل بشكل تام المسؤولية الأخلاقية لما تقوم به. لم تشعر يوماً بالندم لأنها وظفت هذه المرأة أو تلك لتعمل في الدعارة رغم أنها تحض العاملات على البحث عن عمل آخر بين الحين والآخر. ضميرها مرتاح جداً من هذه الناحية، وهي تردد دائماً أن الدعارة أقدم مهنة في الأرض، وأنه لا فارق بين جني المال بهذه الطريقة أو بغيرها، لا بل أنها تفضل أن تستلم النسوة زمام المبادرة، وأن يحققن استقلالية اقتصادية كيفما تيسرت هذه الاستقلالية، على أن يعشن في التبعية والعبودية للرجال.

وإن كانت تحرض عاملاتها على البحث عن عمل أحياناً فليس لأنها غير مقتنعة بأخلاقية العمل، إنما فقط لأنها تعرف المخاطر التي يمكن أن تطال أولئك العاملات.

كانت تلعب دور الذئبة الأم، كأن المومسات جميعهنّ بناتها. لقد علمتها التجربة السابقة كيف تطرد الزبون الذي يزعجها أو يزعجهنّ، وكل ما يهمها هو أن تحافظ بناتها على علاقات حسنة في ما بينهن. إن مديرة الماخور من هذه الناحية امرأة قلّت مثيلاتها، لا بل إن المرء يتساءل إن كانت هناك امرأة أخرى في المنطقة مثلها حقاً.

ولكن بالرغم من راحة ضميرها وقناعاتها الشخصية، يبقى بالها مشغولاً على الدوام. إنها حذرة جداً وتعرف جيداً مهنتها والخطر الذي يحدق بها، ولهذا السبب تحديداً طالبت جوزيف بألا يمرّ في المساء، فإن أراد أي جهاز أمني أن يداهم الماخور من المستبعد أن يحصل ذلك في الصباح أو فترة ما بعد الظهر، فلا زبائن في المكان في تلك الساعات.

لم توظف سمر بأيّ حال أيًّا كان، ولا بأي طريقة كانت. إنها ترفض رفضاً قاطعاً استغلال العاملات وأوضاعهنّ السيئة. طريقتها في اختيارهنّ تقلص احتمالات التورط إلى أدنى درجة، فغالباً ما اختارت العائلات التي ليس فيها رجال ولا أعمام ولا أولاد. من تلك العائلات من مخيمات اللاجئين السوريين البعيدة في منطقة البقاع أو الجنوب بحثت عن نسائها. إن سمر تداري وتعتني باللاتي توظفهن في معاملة إنسانية مميزة.

يمكن القول إن الحظ ناسبها في مخيمات اللاجئين السوريين، فهناك الكثير من البؤس والطليقات أو الأرامل الوحيدات اللاتي لم يطقن الانتظار في المخيمات التي يرتادها يومياً ذئاب الأعمال الجنسية وغيرهم من المرضى غير السويين الذين يفترسون الأطفال والقاصرات.

في تلك الفترة اكتشف جوزيف سرًّا من أسرار ليلى، وأموراً أخرى تتعلق بها، وبلمح البصر وجد نفسه يميل إليها.

ذات فجر، أثناء نوبة حراسته أنهى تحميل عشرات الأغاني الطربية وسجلها على قرصين مدمجين وضعهما في السيارة. بعد شروق الشمس شرب سريعاً فناجينْ قهوة تركية فاترة من ركوة تركت على طاولة في المركز منتقداً روبير لأنه حضّرها مُرّة. ولم يعرف ما فهمه منه روبير لكي يومئ له بحركة خرقاء من رأسه رداً على انتقاده إذ كان يحك أذنه اليمنى بعود ثقاب وهو غارق على الكومبيوتر بلعبة سخيفة يصطاد فيها التنانين الحمراء والخضراء.

تمدد جوزيف على الديوان وسها قليلاً في انتظار بريد قوى الأمن الداخلي. فوصلت آلية عسكرية عند السابعة والربع. استلم طرداً فيه مسدس صناعة أمريكية من طراز غلوك **17**، اشتراه بعد أن رأى

عليه عرضاً خاصاً لعناصر القوى الأمنية، وكان الإعلان منشوراً في المجلة الشهرية التي تصدرها مؤسسة قوى الأمن الداخلي، والتي لا يقرأها أحد، إنما تكدس ستفاتٍ في زاوية من زوايا المركز في كل سنة، حيث يستعملها العناصر لإشعال الموقد في أيام البرد.

خرج بعد ذلك عائداً إلى بيته لكنه مرّ بالماخور أولاً. كانت سمر قد طلبت منه أن ينسخ لها بعض الأغاني الطربية لأن الزبائن ملّوا أسطوانة الموسيقى التي لم تتغير منذ زيارتها في نهاية الشهر المنصرم إلى طرابلس. عند وصوله إلى باحة الماخور ألقى نظرةً سريعةً على الغرفة على السطح فوجدها مضاءةً. تذكر فوراً أول يوم زار فيه الماخور والتقى بليلى. عندما دخل البيت وسلم الأقراص المدمجة إلى سمر تجرأ وسألها عن سبب الإنارة على السطح:

- مستأجر جديد أم هي ليلى؟

أتى سؤاله عفوياً حتى هو نفسه استغرب صراحته. كان يغالب النعاس وخرجت الكلمات من فمه من دون تفكير طويل. في تلك اللحظة فقط اهتدت سمر إلى طرف الخيط وفهمت سبب تردده على الماخور، فابتسمت ماكرة. سألها:

- ما المضحك؟

- يا محتال... تريد الغزالة هاه؟ الغزالة تجري بسرعة...

كان يستعد للذهاب إلى البيت لينام قليلاً ثم يجرب المسدس الجديد عندما يصحو، لكن سمر استضافته في الصالون بعد أن حضرت له قهوة حلوة كما أراد، ودخلت معه في حديث عن الغزالة، عن وصولها ومأزقها. بدت سمر كأنها على أبواب مشكلة، وأرادت أن تستشيره. وكانت تستعيد ابتسامتها الماكرة بين الحين والآخر بحسب وتيرة الحديث فيما هي تحكي له عن ليلى، وسببها فكرة تدور في رأسها عن مغامرة صغيرة قد تجمع جوزيف بليلى.

في شهر تشرين الأول الماضي، أي منذ حوالى السبعة أشهر، تلقت سمر اتصالاً من رجل قال إن اسمه أبو نادر. بدا لها أن الرجل عجوز، تكهنت بذلك من صوته الذي ذكّرها بصوت جدها الحمصي، كما عرفت أنه من قرية جيم وهي قرية تقع على المقلب الآخر من الهضبة التي تشرف على الوادي حيث الماخور، نظراً للهجته القاطعة كالسكين، والمختلفة عن لهجات كل القرى. سألها المتصل إن كانت تؤجر الغرف فهو يبحث عن غرفة بأسرع وقت ممكن. وقصة الإيجار هذه كانت سمر ترويها، مع غيرها من الأقاصيص بطبيعة الحال، إذا سئلت عن سبب زيارة هذه وتلك من السيدات لها في بيتها المعزول والبعيد. وعلى الرغم من أنها أجابته بأنه لم يعد لديها أية غرف شاغرة، إلا أن المتصل وعدها بدفع ألف دولار شهرياً بدل إيجار غرفة واحدة.

لم يخفَ عن سمر أن المستعد لدفع ألف دولار في الشهر لقاء غرفة أقل من عادية في مكان لم تعبد الطريق إليه، مكان تنقصه شبكة الإنترنت وحتى إرسال الهاتف أحياناً، إنما هو يتهرب من خطر محدق به، ولذا رفضت العرض.

بعد مضي يومين على ذلك الاتصال وصلت سيارة مرسيديس سوداء إلى باحة البيت يقودها رجل عجوز، جلست بجانبه سيدة محجبة. بدا مرتبكاً في قيادة السيارة كأنه متمرن في أوّل عهده بالقيادة، وكان من الواضح أن نظره في حال سيئة جداً. تعذب كثيراً في الاستدارة بها وسط باحة خالية مساحتها أصغر من مساحة ملعب كرة سلة بقليل.

بدا لسمر التي خرجت تتفرج عليه أن ركوبه على حمار قد يليق بالصورة التي تقدمها هيئته، أكثر من ركوبه سيارة ألمانية. استقبلته ولكنها لم تدعه لدخول البيت مع أن الساعة كانت تشير إلى التاسعة صباحاً، ولم يكن هنالك أيّ زبائن. حتى أن العاملات كن التحقن بالعمل في لمِّ الزيتون منذ الصباح الباكر. أما المرأة التي ركبت بجانبه، فبقيت في السيارة تتسلى على هاتفها ذي الشاشة الكبيرة، فيما جلست هي معه على كرسيّي خيزران قدّام الباب. عرّف الرجل بنفسه أولاً وقال إنه أبو نادر الذي اتصل بها منذ يومين طالباً استئجار الغرفة.

لاحظت سمر التي تتوجس من الزبائن الذين يظهرون فجأةً أن العجوز ليس إلا فلاحاً بسيطاً، فلا يمكن أن يكون إنسان بهذا القدر من البساطة والطيبة من عناصر المخابرات الذين يلاحقون المواخير، ولا هو واش ولا أي شيء من هذا، إنما مجرد عجوز في حاجة ملحة إلى تأمين مسكن للسيدة الجالسة في السيارة، والتي كان يصفها بالمعترة في كلامه. لكنها وإن اطمأنت إليه، أرادت التأكد من وضع المرأة.

قالت له مبديةً استغراباً كبيراً:

- يا حاج، ليس عندي أدنى فكرة لماذا تريد إنفاق ألف دولار شهرياً ثمن غرفة بائسة مثل هذه. بهذا السعر كما تعرف، يمكنك الحصول على قصر في عكار... يبدو أن لديك مشاكلك، ولكن أنا أيضاً لي متطلباتي.

أجاب العجوز:

- ألا يكفيكِ بدل الإيجار؟ نحن جيران يا ست وأرضي بجانب النهر... وإذا كنت تريدين البطاطا فلديّ...

قاطعته:

- المسألة ليست مسألة بطاطا أو مال يا حاج. هذا البيت يا جدي يعيل عدّة عائلات وعشرات

الناس...

ثم استطردت باحتيال:

- أخاف أن يسبب الأمر مشكلة عويصة لي ولك.

أرجع أبو نادر رأسه إلى الخلف زامَّاً عينيه، فأصدر الكرسي الخيزراني الذي جلس عليه صريراً تقشعر له الأبدان. كأنه بردة فعله تلك حاول تقدير المشكلة أو طبيعة الأعمال التي تجري في المنزل، لكنه سرعان ما استعاد وضعيته السابقة وقال كما يجيب الأطرش:

- آآآه؟ ما فهمت...

أجابت سمر مركزة على فكرة أن مصير السيدة التي تريد حجز الغرفة من مصير البيت كله. قالت له بطريقة لم تفسح له المجال كي يسأل أكثر، فهي تعرف أنه سيبحث عن مكان آخر لو علم أن البيت ماخور:

- لا أريد أن تذهب بك الظنون بعيداً... لا نقوم بأيّ شيء مخالف للقانون... نبيع بعض الكحول ونؤجر غرفاً للعب الورق... هذا كله يجري في الطابق الأرضي. لكن هناك غرفة وحيدة على السطح، فيها دورة مياه ومطبخ صغير ومدفأة ولها سلم خلفي... إن كنت تريد حجزها، فمن الممكن أن تعيش السيدة التي ترافقك فيها... بالمناسبة، أهي التي تجلس في السيارة؟... لمَ لا تنزل كي أكلمها قليلاً؟... يمكنها أن تعيش في الغرفة من دون أن تضطر إلى النزول إلى البيت نهائياً. وأعدك بأني سأتكفل بطردها لو نزلت... هل يمكنني أن أرى هويتها؟

هزّ أبو نادر برأسه ثم ذهب إلى السيارة. تحدث سريعاً إلى السيدة وعاد حاملاً جواز سفرها. سلمه إلى سمر وقال:

- اِسمعي يا ست، أنا لا علاقة لي بك أو بكم. اعتبريني أعمى مع أني لا زلت أرى بعض الشيء. كل ما في الأمر أن أبن أختي أبي محمود عاد من... لعن الله تلك الساعة التي ذهب فيها... عاد ومعه هذه المعترة...

- من هو ابن أختك؟ وإلى أين ذهب أصلاً؟

تردد العجوز قبل أن يتكلم. بدا شارد الذهن قلقاً يلقي حوله نظرات فارغة. بحث في جيب جاكيته العسكرية عن سجائره، تناول علبة دخان ورقية مجعدة ماركة سيدرز، وضع إصبعه فيها، فوجدها فارغة.

قدمت له سمر سيجارة الـ"سْلِيم" الرفيعة فضحك من صميم قلبه عندما رآها. تذكر مقولة شعبية قذرة كانت تردد في شبابه حيث لم يكن هناك سوى سجائر اللف العربية الثخينة. عاود جلوسه ينظر

إلى أجمام من القصب الغض شبت خلف شجرات الكينا التي طوقت المنزل.

سأل:

- هل يمكنني أن آخذ قصبة منها؟ قد تفيدني بقطاف الصنوبرات في الموسم المقبل.

قالت سمر بشيء من الاستهتار:

- خذ إثنتين... لكنك لم تجبني بعد. من هو ابن أختك ومن أين عاد؟

صمت أبو نادر قليلاً وقال بعد تنهد:

- أوخ... أوخ... ولله بصراحة يا ست، أنا لديّ أرض قريبة من هنا أعمل فيها كل صباح منذ أربعين سنة. سأبلغ السبعين قريباً ولم أواجه مشكلة يوماً ولم أسمع كلمة سيئة بحقّي... أنا مزارع فقير... ابن المنطقة يعني... ابن أختي غادر مجدداً... كان عليه أن يغادر... الله يساعدنا ويصبر أمه... المهم... أنا قلت له قبل أن يغادر، إن كنت تريد أن تخبئ هذه الفقيرة، فليس هناك أفضل من بيت حسان حيدر، وهو اسم صاحب الملك الذي يعيش في طرابلس مع عائلته... كنت قد سمعت أن عندك نزيلات سوريات.... أصحيح هذا أم لا؟ أقسم بالله كنا لنستقبل ليلى في منزلنا، لكننا لا نستطيع فالبيت صغير جداً. كما أن ابن أختي لا يستطيع استقبالها عنده، يقول إن زوجته فاجرة، مع أنها مسكينة تأكل القطة عشاءها...

المرأة التي كانت في السيارة لم تكن سوى ليلى إذن. وقبلت سمر في نهاية المطاف بتأجير الغرفة لها لمدة شهر واحد قابل للتجديد.

منذ ذلك اليوم، وليلى تتنقل كثيراً، فلم يحدث أن بقيت أكثر من ثلاثة أسابيع في الماخور. ثمة رجل آخر، غير الفلاح الذي يزورها للإطمئنان عليها بين الفينة والأخرى يأتي كل فترة إليها، ويقلها من المنزل إلى مكان آخر. إنه متكتم جداً، اعتاد أن يصل إلى الباحة أمام البيت، فتلاقيه ليلى بشنطتها الكبيرة، وتركب معه ويرحلان معاً.

قدّرت سمر أنه أبو محمود إبن أخت العجوز. وفي آخر كل شهر، كان يطرق على شباك المطبخ المطل على الباحة، فتفتح له سمر الباب، وتستلم منه ظرفاً أبيض مرتباً فيه إيجار الشهر. كان الرجل يضع رأسه أرضاً كما يفعل أولئك المتشددون عندما يخاطبون امرأة، ويمد يده حاملاً الظرف الذي يحوي المال. هكذا تجري الأمور منذ قرابة سبعة أشهر مع هذا الرجل.

إنما هناك أمر حيّر سمر قليلاً. كلّما غادرت ليلى الماخور تعود بشيء مختلف. ففي المرة الأولى التي خرجت فيها عادت من دون حجابها، ومع الوقت بدأ لباسها يتغير. نزعت عباءتها، وبدأت تلبس الكعب والجينز والقمصان، وتتبرج كذلك، علماً أنها عندما وصلت، كانت محتشمة جداً. ثم أدركت

سمر أن ليلى بدأت التدخين ولاحظت أنها تدخن سرًّا لأنها تترك علبها في الغرفة عندما ترحل برفقة الرجل، كما أنها وقعت على ثيابها الداخلية ذات يوم بينما كانت تغير جرّة الغاز في غرفتها، ومن بين تلك الثياب كان هنالك سترينغات حمر وسود. وأثارت هذه الإكتشافات وساوس لديها، وصارت تتساءل إن كان الرجل الذي يقلّها من الماخور هو مشغِّلها.

تعودت ليلى البقاء في غرفتها على السطح في الفترة الأولى. تقفل على نفسها، وتمضي أيامها أمام التلفزيون، ولكنها شيئاً فشيئاً صارت تخرج قليلاً، بداية على السطح، ثم بدأت تتمشى خلف البيت، في تلك الطريق الزراعية التي تنزل إلى الوادي العميق والمنسابة مع طبيعة الأرض. كانت تتمشى وحيدة، حتى أنها في يوم من الأيام ذهبت في الطريق الصغيرة الأخرى، أي تلك التي تسلكها السيارات إلى الماخور، والتي تصل المنطقة بالطريق الدولية، وهو الأمر الذي فضلت سمر ألا يتكرّر.

في الواقع، لم تكترث سمر لوضع ليلى كثيراً وبقيت علاقتهما كعلاقة أي صاحب ملك بمستأجر نزل عنده. إنها تجني بعض المال من بقاء ليلى في المنزل، ولا تزال تجدد الإيجار كل شهر بالرغم من شكوكها الصغيرة. على كل حال مرّت أشهر ولم تقع مشكلة، فلم يكن ثمة داع للقلق. ثم إن ليلى مطيعة، فهي تبقى قدر المستطاع محتجبة، ولم تثر أية مشاكل، ولم تظهر أبداً أمام الزبائن، حتى أن أحداً من شلة الزبائن لا يعرف أن إمرأةً تعيش على سطح هذا البيت.

منذ شهرين تقريباً، عند الرابعة والنصف فجراً، وصل إلى الماخور الشخص الذي اعتاد أن يقلّ ليلى كل فترة في سيارة المرسيدس السوداء. ترجّلت ليلى منها حتى قبل أن تتوقف، كأنها هاربة منه. تركت الباب مفتوحاً وركضت باتجاه السلم المؤدي إلى غرفتها، فترجل السائق بدوره ومشى خلفها مترنحاً تاركاً محرك السيارة شغالاً. شاهدت سمر كل ذلك عبر شباك المطبخ الذي أظلم بسبب انقطاع التيار الكهربائي، لكنها لم تشأ أن تتدخل في ما لا يعنيها. كان بالها مشغولاً بواحدة من العاملات التي أبلغتها بحبَلها منذ بضعة أيام. سُمع صوت حركة قوي في الغرفة على السطح، وظنت سمر أن نقاشاً حاداً اندلع بين ليلى والشخص الذي تقدر أنه أبو محمود.

هدأ الصوت قليلاً وتجمهرت بعض المومسات حول مديرتهنّ في المطبخ يسألنها عن المشكلة، هنّ اللاتي يعلمن تمام العلم أنه بخسارة الإيجار الذي تدفعه ليلى سوف تسوء الحالة المادية أكثر. كنّ يردن أن يعرفن ما يحصل فوق رؤوسهنّ في الغرفة على السطح، فمصيرهنّ من مصير المستأجرة. فجأة عاد الصراخ قوياً ولكن سمع منه القليل بسبب هدير المحرك:

ـ ما هذا... ما هاااااذاااا وْلي...؟! تريدين أن أق-... له ... إذن ...

ثم سمع صوت ليلى حاداً:

- يا... ياحيوان... يدك... أكسرها.

وصدر صوت قويّ وعميق بعد الصراخ كأنه صوت مزهرية بورسيلان، أو شيء من هذا القبيل، وقعت على الأرض وتكسرت. رمت سمر ما تبقى من سيجارتها في فنجان القهوة، وهرولت سريعاً إلى الطابق صاعدة الدرج درجتين درجتين بخفة، كأنها كانت تزن في تلك اللحظة خمسين كيلوغراماً لا تسعين. لحقت بها النساء الموجودات في الماخور وكنّ لا يزلن بثياب نومهنّ. على رأس السلم توقفت سمر فجأة واستدارت إليهنّ وأمرت إحداهنّ بالذهاب فوراً للبحث عن العجوز أبي نادر في حقله القريب. قالت:

- لا بد أنه هناك... يأتي من طيز الضوء.

دفعت سمر باب الغرفة الخشبي فوجدت الرجل منحنياً فوق ليلى الممدّدة على الكنبة، يمسك بها من حنكها، يعنفها ويشدّ على وجنتيها، فتقوست شفتاها. ولكن على الرغم من وضعها الصعب هذا، كانت عيناها تقدحان شرراً وكانت مستعدة لقتله بأيّ شيء تصل إليه يدها. فوجئ الرجل بدخول سمر عليه والتفت مشدوهاً ينظر إليها وإلى العاملات اللاتي وقفن خلفها. قالت سمر بنبرة فيها من التهديد:

- أتركها وأخرج فوراً من هنا... لا أقبل بهذه التصرفات في بيتي.

كانت سمر تنتظر من الرجل ردة فعل قوية ولقد استعدت ذهنياً، رغم الثواني القليلة التي أتيحت لها منذ وصولهما، لمشادة كلامية، أقله كلامية، معه. إنها تعرف هذا النوع من الرجال جيداً. غير أن الرجل، بتصرف غريب جداً، ترك ليلى ممددةً على الكنبة، أحنى رأسه أرضاً، ثم انسحب من الغرفة من دون أن يقول أيّ كلمة. نزل السلم إلى الباحة مهرولاً، فتح صندوقها وأنزل منه شنطة رماها أرضاً، ثم ركب سيارته ورحل.

عند خروجه اشتمت سمر رائحة الكحول تفوح منه، وأدركت أنه ثمل. طلبت بعد ذلك من العاملات أن يعدن إلى البيت وأن ينمن قليلاً، فذلك اليوم كان يوم سبت وهناك سهرة كبيرة لن تنتهي قبل طلوع فجر الأحد.

في فجر ذاك السبت، وهو السبت نفسه الذي زار فيه جوزيف الماخور لأول مرة برفقة زميليه، أطلعت ليلى، السورية، سمر على قصتها والصعاب التي تواجهها. قالت ليلى إن زوجها تاجر حلبي، وهو اختار أن يبقى في سوريا ليتابع أعماله وخاف أن تُخطَف لابتزازه فأوكل أبا محمود، الرجل الثمل الذي خرج للتو، بتأمين غرفتين لها كي تنزل فيهما.

ليس الزوج مؤيداً أو معارضاً للنظام وكلّ ما يعنيه مصالحه، ولكنه الآن، بواقع الحرب الطويلة، يتعامل مع عدة ميليشيات مسلحة دخلت إلى ضواحي المدينة، كما أنه يتعامل مع النظام. ولم يرد أن

تبقى هناك أكثر، فالحالة لا تطاق والحياة رخيصة. كانت سمر تنصت إليها بكل تركيز لكنها لم تمتنع عن طرح بعض الأسئلة:

- لماذا لم تبقي في دمشق أو اللاذقية أو حتى بيروت... أليست هذه المدن أكثر أماناً من عكار؟

- قلت له لكنه عارض... بصراحة لم أفكر ببيروت أبداً خصوصاً وأن فيها أناساً كثيرين من حلب. أما سوريا فهي خطيرة جداً يا سمر وأنت تعرفين ذلك. في هذه الأيام قريبك يبيعك قبل الغريب... لو بقشرة بصلة... يبيعك ما إن يعرف بحالتك المادية...

أضافت ليلى أن أبا محمود نفذ المطلوب واستأجر لها غرفتين، ولذلك تجد نفسها غالباً في تنقل مستمر بين المكانين كي لا يكتشف أحد هويتها أو يعرف أين تسكن. وقالت إنه قام بذلك للتمويه، خاصة وأن لدى الزوج معلومات تفيد بأنها ستكون صيداً ثمينا للخاطفين، فاسمها على لائحة سرية خطفت بعض الشخصيات المسجلة عليها من أجل طلب فدية لقاء تحريرها.

سألتها سمر باستغراب:

- لائحة؟ عن أي لائحة تتكلمين؟

- زوجي تاجر قدير وله علاقات في لبنان... يقول أبو محمود إن تلك العلاقات تداعت بعد الحرب وإنه من الممكن أن يكون...

صمتت برهة تفكر ثم أضافت:

- بصراحة أنا لا أعرف الكثير عن الموضوع. أبو محمود يقول لي دائماً إنهم يتعقبونني ويريدون خطفي لطلب فدية مالية. هذا كل ما أعرفه. ألم تلاحظي أنني لم أخرج بتاتاً من البيت في الفترة الأولى؟

قالت سمر:

- طبعاً لاحظت، لكني ظننت أن أبو محمود لا يسمح لك بالخروج... أعرف جيداً هذا النوع التقي من البهائم!

فتح حديث آخر عن المشكلة مع أبي محمود وأخذت سمر تطرح الأسئلة كي تعرف لماذا قام بما قام به الآن. أخبرتها ليلى أن أبا محمود انزعج كثيراً في الآونة الأخيرة من طريقة لباسها وبدأتْ تتشاجر معه علماً أنه هو الذي طلب منها في البداية أن تنزع الحجاب، فهذا الأمر سوف يضلّل متعقبيها ويسهل عليها التنقل. ولكنها بدأت تلاحظ مؤخراً أنه صار إنساناً مضطرباً، يسترق النظر إليها، ويرغب فيها وهي تشعر بذلك جيداً. قد يكون انقطاع الإتصال بينها وبين زوجها من جهة، وبين أبي محمود وزوجها من جهة أخرى هو الذي يشجعه على التقرب منها بهذا الشكل المرضيّ.

سألتها سمر:

- منذ متى انقطع الإتصال بزوجك؟

- منذ ثلاثة أسابيع... أكثر بقليل ربما... لو علم أبو محمود أن زوجي أصابه مكروه، فهذه كارثة. لا أعرف ما العمل...

- كيف يعني كارثة؟

- لأبي محمود نزعات حيوانية تفوق التصور... ألم تريه منذ قليل؟... لم يكن يريد ضربي، إنما اغتصابي، كان مهتاجاً وأنا رأيت ذلك بأم عيني... إنه إنسان مضطرب... لقد قاتل في سوريا كثيراً والله أعلم بكم من الجرائم والاغتصابات شارك...

مرّت سمر على ليلى بنظرة استكشافية من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ثم قالت:

- هدئي من روعك... لا أعتقد أن هناك الكثير من الرجال الذين يمكن أن يسيطروا على نزعاتهم عند رؤيتك... عليك أن تكوني قوية.

لم تقل سمر ذلك عن عبث. لسبب ما، لم تبدِ تعاطفاً كبيراً مع ليلى. ثمة شيء ما لم تصدقه في روايتها مع أنها رواية متينة. كان لديها شعور بأن هناك أموراً مخفية لم ترد ليلى الإفصاح عنها، وكانت تراودها شكوك تتعلق بأبي محمود، ومع أنّها ترددت في الضغط عليها قليلاً لتعرف المزيد إلا أنها وجدت الوقت غير مناسب لذلك.

نهضت ونزلت السلم لتلاقي أبا نادر العجوز يطرق على الباب بعنف. كان قد أتى من الحقل وحده بعد أن سبقته المومس التي ذهبت لكي تطلب إليه الحضور.

كان جوزيف ينصت إلى سمر تتكلم عن ليلى، وقد زال نعاسه لشدة اهتمامه بكل كلمة نطقت بها. سأل متحمساً:

- هل لا يزال أبو محمود يتردد إلى البيت؟ وماذا قال أبو نادر؟

- طبعاً لا يزال يأتي! ولولا ذلك لنسيت المشكلة من زمن... أما أبو نادر... الله يساعده أبو نادر... استمع لشكواي وشعر بالحرج من معاملة قريبه لامرأة غريبة. ثم أمضى طيلة النهار في الماخور ينتظر عودة أبي محمود ابن أخته ليشهد على اعتذاره من ليلى. لم يرد أن يغادر من دون أن يشهد على الإعتذار. حاول مهاتفته أكثر من عشرين مرة في ذلك الصباح لكن من دون جدوى... إنه أصلاً لا يعرف كيف يستعمل الموبايل، وكنت أنا الذي أطلب له الرقم... ولما عاد الأخير في أول المساء، أتى حاملاً كيلوين من البقلاوة وضعهما على طاولة المطبخ، ثم اعتذر للجميع عما بدر منه فجر اليوم، كما اعتذر لليلى. قال لها أمامي إنه شرب قليلاً مساء أمس، وإنه كان متعباً. لكنه كان يصر على نقطة

وحيدة، أعطاها أهمية كبيرة، مفادها أن ليلى تدخن وهذا غير مقبول. وعندما سأله أبو نادر"أين المشكلة" قائلاً إن ثلاثة أرباع نساء قرية جيم يدخنَّ أجابه الأخير بفظاظة:

- سيأتي يوم ما نضع حداً لهذه البدع.

أضافت سمر:

- عن أيّ بدع تكلم؟!... ما قولك؟ أقسم بالله يا جوزيف علقت هذه الجملة في رأسي كأنه نطق بها للتوّ! من هم؟ أولئك الذين سيضعون حداً لهذه البدع؟

تابعت سمر تروي:

- أيكون واحداً من أولئك المتشددين؟ ما رأيك؟... المهم... دعني أتابع دعني أتابع... جلس الرجلان، يعني أبو نادر وأبو محمود، جلسا في الصالون يتكلمان ويشربان الشاي. تركتهما وخرجت أستقبلكم... هل تذكر؟ وبعدها بقليل نزلت ليلى عمداً لتطلب السجائر مني... لا أذكر بماذا تحجّجت كي تخرج إلى السيارة. التقت بكم عند الباب، تذكر هاه؟ أنا أذكر جيداً.

هذا ما حصل حقاً.

كان تسلسل أحداث ذلك النهار واضحاً في ذاكرة سمر بطريقة تثير الدهشة. قالت إن وصول الدركيين لم يكن متوقعاً، خصوصاً وأن الجو كان لا يزال مشحوناً منذ الصباح. أضف إلى ذلك أن النساء اللاتي يعملن في الماخور اضطررن إلى تأجيل كل التحضيرات للسهرة، ريثما يرحل الضيفان اللذان جلسا في الصالون. سمر في الأساس لم ترغب بمجيء أحمد ومصطفى لكنهما عانداها وكلماها بسفالة عبر الهاتف، بالأخص مصطفى، ومنذ ذلك اليوم بدأت تفكر بزبونين آخرين يمكنهما أن يحلّا مكانهما، ولكن الوضع المادي صعب وهي مجبرة على قبولهما.

غالب جوزيف النعاس الذي عاد يتحكم به وصب كل تركيزه على سمر التي روت قصة ليلى متابعاً حاجبيها يتفاعلان مع السرد، ويديها اللتين تستعملهما كثيراً أثناء الكلام. ولما توقفت تثاءب تثاؤباً طويلاً دام خمس ثوان على الأقل، هو نفسه استغربه وقال:

- يومئذ ظننت العجوز أبو نادر وأبو محمود حارسَيْ الماخور وسلمت عليهما. أذكر أنهما كانا يجلسان على الديوان.

فردّت عليه وهي تقرصه في خده:

- يييييه كم أنك بريء...

قال جوزيف ما قاله من دون أن يلاحظ أنه استعمل كلمة ماخور، ثم سأل سمر إن كان حضوره مع أحمد ومصطفى سبب لها المتاعب في تلك الأمسية؟ ثم قال أيضاً إنه يذكر جيداً عدائية قلّ مثيلها في

نظرات أبي محمود. أجابته بأن كل شيء مرّ بسلاسة مع العجوز الذي رحل قبل أن يخرج هو مع زميليه من غرف المومسات، بينما حاولت بشتى الطرق أن تقنع أبا محمود بالمغادرة لكنه كان يماطل لأنه شعر بشيء ما، وأراد أن يعرف لماذا دخل الدركيون إلى الغرف. كان أبو محمود مضطرباً منذ الأمس كأنّ عنده مشكلة شخصية.

هذا كان تقدير سمر التي لم تقتنع أن المسألة مسألة كأسين أو ثمالة. طوال ذاك النهار قالت في نفسها إن هذا الرجل ليس على ما يرام وهذا الأمر لا علاقة مباشرة له بلباس ليلى كما أخبرتها الأخيرة عند الفجر.

تابعت سمر تقريرها قائلة إنه لما دخل الدركيون يضاجعون، اشتبه أبو محمود بشيءٍ ما، وسمع صرير الأسرة رغم أنها رفعت صوت التلفاز إلى أقصاه، ذلك أن الغرف ليست معزولة جيداً، وكل شيء يسمع داخل البيت. بعد ذلك بقي جالساً على الديوان بانتظار خروج إحدى العاملات، وكان يقول إنه يريد أن يسألها شيئاً. قالت لجوزيف بشيء من الحسرة:

- لقد تسرعتُ...

قال جوزيف متعاطفاً:

- كيف تسرعتِ؟ هذا... كان يجب أن لا نأتي في ذلك اليوم! هذه غلطة... مصطفى زبُّه قاتله، وأحمد أيضاً!

- عندما رآكم داخلين إلى البيت سأل عنكم، فقلت له أنكم إخوة واحدة من الأجيرات وأنكم خرجتم من الباب الخلفي سوياً كي تتمشوا صوب النهر... لم أحسبها كثيراً... قلت له أيضاً إنها امرأة حلبية من عائلة كذا... فقال لي إنه يعرف شخصاً من هذه العائلة ويريد أن يكلمها... كان ينافق بالتأكيد...

- والآن ماذا يريد، ماذا طلب منك؟ ما زال يأتي إلى هنا كما تقولين؟...

قالت سمر كأنها على يقين أن الطلب آتٍ لا محالة:

- نعم، يأتي يأتي... يدفع الإيجار كما جرت العادة، ويأخذ ليلى بين الحين والآخر... لكنه لم يطالبني بأي شيء بعد... بأي الأحوال المشكلة ليست عويصة إلى هذه الدرجة... في أقصى الحالات سيهددني... أي إنه... هذا ما أرجحه، سوف يضع الألف دولار في جيبه... ويخيّرني بين الألف دولار والبلاغ إلى الجهات المختصة... سيبتزني.

سأل جوزيف:

- ولمَ لم تبلغي زوج ليلى بأنه اعتدى عليها؟

- والله ليلى هذه أمرها غريب... تريد أن أقولها بصراحة؟ أشعر أنها لا تريد ذلك حقاً... تريد أن

تحيّد زوجها عن المشكلة. زد على ذلك أن الإتصال بزوجها شبه مقطوع، فمنذ اعتدى عليها أبو محمود اتصل بها الزوج مرة واحدة فقط، ولم تقل له شيئاً في حينه...

فتح جوزيف راحة يده وأخذ يفرك ذقنه بأصابعه مفكراً. كانت سمر تشعل السجائر واحدة تلو الأخرى وتقول في نفسها بثقة إنها نجحت في حل مشكلة أكبر وهي مشكلة العاملة الحامل في ظروف صعبة جداً، وستعرف كيف تتعامل مع حقير مثل أبي محمود.

قال جوزيف قبل أن يغادر:

- يجب أن أذهب الآن... لا تتردي في الإتصال بي إن احتجت إلى أيّ شيء.

١٢

غادرت ماريا قرية ميم إلى مدينة كاركاسون في بداية شهر حزيران يونيو من ذلك العام، منهيةً بذلك فصلاً جديداً من حياتها مشحوناً بالعاطفة والغرابة. التنور الذي عملت فيه برفقة جدتها في كل صباح ترك فيها أثراً واضحاً ولذة ستعود بالتأكيد مرة أخرى من أجلها، أما صاحب البي. أم. دبليو السوداء الذي التصق بها طوال أسابيع فنسيته سريعاً رغم العيارات النارية والخوف الذي سببه لها، ورغم أنه كان، بطريقة أو أخرى، سبب لقائها بجوزيف.

ربما تكون نسيته أو حولته إلى ذكرى مضحكة تافهة لكثرة ما سخرت منه ومن تصرفاته مع صديقتيْها الفرنسيتين اللتين كلمتهما عبر السكايب، إذ دأبن في تلك الفترة، أي قبل أن تبدأ بعلاقتها مع جوزيف، على التحادث معاً كل ثلاثة أو أربعة أيام تقريباً، فتسرد عليهما مشاكلها مع أبيها بسببه، وكانت تخبرهما أين رأته ومتى اقترب منها، وكانت الصديقتان تنصتان إليها كمن يتابع مسلسلاً وتطلبان منها وصف العاشق.

لم تقدر ماريا على وصف أبسط الأمور التي تتعلق به. لم تصف سوى نحول وجهه وقصر شعره وكثافة حاجبيْه التي لم تخفها نظارتاه السوداوان. لكن عندما كانتا تسألانها أهو طويل أم قصير، سمين أم نحيل، وسيم أم قبيح، لم تكن تعرف بماذا تجيب. كيف لها أن تعرف هذه التفاصيل الدقيقة طالما هي محجوبة؟ لم تره يوماً ماشياً على الأرض، فهو دائماً في السيارة.

مغامرة ماريا الاستثنائية دفعت صديقتيها إلى شراء هدية مضحكة لها، هي كناية عن فيلم كوميدي لمخرج إيطالي من حقبة ستينات القرن الماضي، كانتا قد شاهدتاه من قبل فيه شخصية غريبة غامضة، لا دور حقيقياً لها في الشريط سوى المرور بين الحين والآخر بين المَشاهد، إما في سيارة سوداء، وإما على دراجة نارية سوداء أيضاً مما أثار تساؤل أهل المدينة حيث تدور أحداث الفيلم، إذ لم يكن أحد يعرف شيئاً عن مكان سكنها وطول قامتها وصوتها وعملها وعمرها.

كان سكان المدينة متأكدين فقط أن ثمة رجلاً داخل السيارة لا امرأة، وأنه يعشق واحدة من تلك الشابات اللواتي يتنزهن على الأرصفة في ليالي الاحتفالات الدائمة.

وكانت صديقتا ماريا تؤكدان لها من باب الممازحة الساخرة أنها ركبت مرتين بجانب أكثر الشخصيات غموضاً في منطقة عكار وأنه يجب أن تكون فخورة بهذا الإنجاز الكبير الذي حققته.

زارت ماريا جوزيف قبل أن تعود إلى ديارها. لم تتقبل فكرة العودة من دون توديعه. الحياة تمضي بسرعة، وهي لا تستحق كل هذا العناء، إذ هي هكذا، مجموعة خسائر وأرباح.

وعلى الرغم من أن هذه الزيارة بدت لجوزيف مثل مفاجأة تافهة في يومها، إلا أنها كانت بقعة الضوء الوحيدة التي أنقذته من ظلام عظيم كاد أن يضيع فيه. لقد ذهبت ماريا إلى بلدة صغيرة مجاورة وابتاعت صابوناً يستوردونه من حلب وصعتراً وسماقاً وأشياء أخرى غير متوافرة في بلادها كي تأخذها معها، ثم قررت أن تعرّج على جوزيف.

خرجت تقود سيارة أبيها وكانت تعيش يوماً أخيراً غريباً، تتقلب بين الفرح بالعودة، والحزن على ترك القرية. في ذلك النهار المشمس من بداية شهر حزيران، هبت نسمة ربيعية عليلة، وبدت كل الحيوانات والطيور والحشرات في نشاط لافت. كان الأفق صافياً بحيث يرى المرء بوضوح ربى حمص وقلعة الحصن المنتصبة على إحدى تلك التلال.

اتصلت ماريا بجوزيف، فقال لها إنه في بيت العائلة. دلّها على الطريق ولم تلبث أن ظهرت في أزقة القرية سيارة لوحة تسجيلها خضراء، أي أنها مستأجرة. ركنتها خلف المرآب ثم صعدت إلى بيت نجيب تفكر في ما يمكن أن يدور بينها وبين جوزيف من كلام. استقبلها جوزيف مبتسماً وشعر بسعادة سرعان ما تلاشت.

سلم عليهما ودعاها إلى الجلوس وسط دهشة نجيب وهدى الكبيرة، لكن ماريا شرحت لهما سريعاً أنها أتت تودع جوزيف الذي ساعدها في محنتها مع صاحب البي. أم. دبليو، وهذا ما تطابق مع أقوال جوزيف. قدرت ماريا ما سيقوله بخصوص هذه الزيارة.

وكان ثمة ضيف يحتسي القهوة بضيافة العائلة منذ نصف ساعة، وهو قروي من أصحاب النميمة لدرجة أنه قد يقلب الدينا أسفلها عالياً لشدة سفالته. وصادف ذلك مرور أيوب أمام المنزل متوجهاً لزياة أحد المنازل. صمت الجميع وهم يراقبون الرجل من على الشرفة سامعين وقع خطاه خطاه على الإسفلت، مشهد استشعرت ماريا ما أثاره من توتر. بادر الضيف إلى كسر جليد اللحظة، مع أنه كان يعلم، مثل أي قروي آخر، أن زواج جوزيف من ابنة هذا الرجل قد ذهب أدراج الريح. سأل مصطنعاً التفاجؤ:

- أففففف؟! إلى هذه الدرجة؟ لا يرمي السلام؟

أجابت هدى وقد ساورتها رغبة كبيرة في التكلم بالسوء عن أيوب:

- هه! ليس وحده... منذ وقعت المشكلة فقدنا نصف القرية. صرنا شياطين! كنت بحاجة لنصف كيلو من القهوة في كل صباح كي أسقي زوجاتهم الشراميط... اليوم لم تعد أي واحدة تطأ أرض البيت، كأننا

ارتكبنا جريمة... عزرائيل يأخذهم كلهم!

سأل الضيف:

- ومنال... هل جاءها عريس جديد؟

قالت هدى بانفعال:

- وما أدراني أنا! ألم ترَ كيف مرَّ حانياً رأسه كالثور؟

أنهى نجيب النقاش بكلمتين شفتا غليل الضيف، فأقفل الموضوع ومضت الأمور على خير.

بعد أن شربا القهوة عرض جوزيف على ماريا أن يترافقا في نزهة صغيرة ناحية البساتين، ذلك أن نجيب لم يرضَ أبداً أن تغادر من دون مشاركتهم الغداء:

- يا عَمّي أنت ذاهبة إلى فرنسا، وحياة المسيح لن أدعك تغادرين هذا البيت من دون تذوق كبة أم جوزيف وعرقنا...

مرّا بجانب بيت مطانيوس غريب قبل توجههما إلى البساتين، وكان هناك في باحة البيت، ذات البلاط الأحمر العريض، طاولة كبيرة من خشب الصنوبر، فاتحة اللون غير مطلية، صفّت عليها كؤوس شامبانيا كريستالية فارغة تلألأت فيها أشعة الشمس التي تحجبها بين فينة وأخرى غصون الحورات العالية. وبجانب الكؤوس وضع سطل فضيّ اللون علِقت على دائرته قطرات صغيرة من المياه، ووضعت فيه ثلاث زجاجات خضراء بانت رؤوسها الذهبية.

في الباحة ضحك بعض الجالسين على الكراسي الخيزرانية ساخرين من واحد بينهم كاد يختنق عندما حاول تدخين السيجار، وظل يحاول كتم سعاله، ثم تابعوا نقاشاً عن "إذاعة لبنان" وعن مغنٍّ لبناني صوته يصدح من بوق الغراموفون خلف الشباك. لم يكن في حوارهم عن ذلك الفنان حزن أو أسى، إنما كانوا يقلبون في أرشيفه كمن يقلب متصفحاً في موسوعة، وكل منهم يقول اسم الأغنية الأحب إلى قلبه.

كان هناك ثلاث نساء في الحديقة لبسن فساتين ربيعية وأحذية جلدية واطئة الساق، أطلقن شعرهن في الهواء وهنّ يركضن على العشب ضاحكاتٍ خلف الأطفال الذين حملوا علب رغوة الصابون، وأخذوا ينفخون فيها في جميع الاتجاهات ويعدون خلف فقاعاتها في ظل شجرتيْ ليمون ضخمتين. كان مطانيوس غريب قد مشط شعره الخفيف الذي خطه الشيب، وشذب ذقنه تاركاً شاربيه النحيلين كعادته، ولبس سترة رمادية خفيفة ذات أزرار عاجية سوداء كبيرة، وبنطالاً مخملياً أسود ووقف يتذوق من قدح شراب بلون عصير الرمان.

وكانت تسمع بين الحين والآخر موسيقى نشاز من هارمونيكا، كأنما هناك أحد يتمرن عليها في

البيت. وعلى وقع أغنية عذبة تقول "الهوى حنين يناجي حنين، يهدي محبين إلى محبين" تقدم جوزيف نحو البساتين الغربية للقرية لكنه لاحظ أن ماريا توقفت مشدوهة. إن مسافة ثلاثين متراً عبرتها بجانب بيت مطانيوس غريب كانت كافية لها لتدرك شيئاً ما انتظرته من السفر. راحت تتأمل سيارة المرسيدس الحمراء موديل السبعينات تلمع مثل جوهرة ليس فيها خدش واحدٌ، والحديقة التي امتلأت بالأزهار والورود من مختلف الأنواع، والياسمينة التي تسلقت الجدار الحجري الأسود العريض بنوافذه الثلاث ذات المصاريع الخشبية الزرقاء الغامقة، والقطط الخمس التي احتلت مواضع مختلفة من الحديقة.

سمعت كلاماً متقطعاً بالفرنسية، وتمنت لو بإمكانها أن تقفز وراء السور وتقتحم البيت لتفتح زجاجة شامبانيا وتشرب نخب هذا كله. زهت وجنتاها وأحسّت أن تلك الخطوات التي مشتها بجانب هذا البيت لخّصت سفرها. كأنما اكتشفت شيئاً ما كانت تنتظر اكتشافه منذ زمن. إن العاطفة التي تدفقت فيها في تلك الثواني لا يمكن قياسها بأيّ معيار.

١٣

أفلت عجل السيدة ميرفا من الحظيرة الصغيرة التي سبق أن كانت غرفة نوم المرحوم زوجها في زمان مضى، وانطلق يجوب شوارع القرية ويُسمع وقع أظلافه حيثما مرّ، وراح الأطفال يعدون خلفه مثل قطيع. هذا العجل هو خاتمة العجول في قرية صغيرة تخلى أهلها عن تربية الأبقار شيئاً فشيئاً، فيما عاندت العجوز ميرفا تطور العالم واستمرت تشتري بقرة في كل مرة، وعندما تمرض أو تنفق أو تبيعها تشتري أخرى. ونفقت البقرة الأخيرة بعد أن خلّفت هذا العجل بأسابيع قليلة. اليوم، ليس وارداً أن تشتري العجوز من جديد بقرة أخرى إذ لم تعد قادرة على الاهتمام بها بسبب تقدمها في السن.

التقى جوزيف بالعجل وكاد أن يصدمه بسيارته، فتوقف وصرخ في الأولاد الذين كانوا يبذلون كل جهد ليزرعوا الذعر في البهيمة. كان يشعر بمسؤولية كبيرة وبدا ذلك واضحاً من صراخه على الأولاد، لأنه تلقى اتصالاً هاتفياً من سمر تطلب منه أن يأتيها في زيارة عندما تسنح له الفرصة فهي تفضل مقابلته على التكلم عبر الهاتف. الأمر يتعلق بليلى.

وصل جوزيف إلى الماخور عند الخامسة من بعد الظهر، ولاحظ فوراً أن تفاصيل كثيرة تغيرت داخل البيت. لقد نُزعت الألواح الخشبية التي تفصل بين جدران الغرف وتركت في الردهة، كما نزعت المنصة الصغيرة المخصصة للرقص في الصالون، وأخرجت زجاجات الكحول التي كانت معروضة في البار الصغير بجانب التلفزيون. قالت له سمر إنها وضعتها في صناديق خشبية وخبأتها في غرفة معزولة بجانب النهر، وهي غرفة صغيرة طوقتها الحشائش البرية كان صاحب الملك قد بناها سابقاً لمولد الكهرباء.

منذ الظهيرة شُرعت النوافذ وقامت سمر بتنظيف شامل للبيت مع العاملات قبل أن تعود كل منهن إلى ديارها في انتظار اتصال جديد منها كما اتفقت معهنّ.

حتى الحادية عشرة صباحاً كان كل شيء على ما يرام. ولم تشعر سمر بأي حركة على سطح البيت، فنشغلت بإنجاز جردة حسابية لمصاريف المنزل ومداخيله ثم تذكرت ليلى. نادتها من الأسفل مرتين لكنها لم تجب. صعدت بعد ذلك إلى غرفتها وطرقت الباب. هناك فقط، أمام العتبة، سمعت صوت السرير الخفيف، ولما فتحت الباب وجدتها بثيابها الداخلية مقيدة بشرائط لاصقة عريضة، رمادية اللون، إلى وسط الجانب الخلفي من السرير. كانت مقيدة من رجليها ويديها بحيث تقوس ظهرها والتفّت حول نفسها كجنين في بطن أمه. وقد كمّ فمها بخرقة بيضاء بطريقة محكمة تماماً.

كانت سمر تشرح لجوزيف ما حصل بهدوء وهي تقوده إلى غرفة ليلى على السطح. توقف الشاب مرة أولى سائلاً:

- ماذا حصل؟

- سألتها... تقول إنها استيقظت ووجدت نفسها مكبلة... تقول إنها لا تعرف شيئاً... لا بل قل إن الأكثر غرابة هو أنه لا أثر لمخدر عليها، كما أنه لا أثر للخمر... هي بحالة جيدة، وأنا على يقين أنها كانت وحدها في الغرفة ليل أمس، وهذا أمر يحيّرني حقاً... لكني متأكدة أن أبو محمود تسلل عند الفجر ثملاً كما جرت العادة وفعل فعلته وغادر ونحن نيام.

شعر جوزيف بخوف وبرجفة في ساقيه كأنّ له علاقة بما جرى. ثم طرح على نفسه السؤال التالي كأن صاعقة من الوعي نزلت عليه:

- ماذا أفعل هنا وما علاقتي بهذا كله؟

ثم سأل سمر:

- لماذا اتصلت بي أنا؟ أين هي؟

- يا جوزيف أنت الذي قلت لي أن أتصل بك... هل كنت تهذي منذ يومين عندما أحضرت لي أقراص الموسيقى؟ ثم إنك تعرف جيداً... أنا لا أثق بأحد من الزبائن غيرك. بصراحة، لا أعرف ما العمل بتاتاً، ولا أعرف لماذا ورطت نفسي وورطتك معي... يلعن أبو الألف دولار وتلك الساعة السوداء التي قبلت فيها بتأجير الغرفة.

استعاد جوزيف رباطة جأشه وتحسّس المسدس الجديد على خصره كأنه يبحث عن ثقة ما، ثم قال:

- قولي لي الآن بمَ تفكرين؟

- ألا يمكنك أن تجد لها مكاناً تنام فيه بضعة أيام؟ إن كان أبو محمود هو من قام بهذه الفعلة، وأنا لا أرى خلاصة معقولة غير هذه، فوالله سوف ينحرها في المرة المقبلة... إنه مريض نفسي... وأنا بجميع الأحوال عليّ الذهاب إلى طرابلس لبضعة أيام لدفع الإيجار ولأمر يتعلق بعمتي المريضة... أنت تعرف أنها تنازع... قال الطبيب إن أيامها صارت معدودة... لا يمكن أن أصطحب ليلى معي إلى هناك. هل تعلم؟ لقد أرسلت العاملات خوفاً من مداهمة... ماذا لو بلّغ عنا هذا الحقير أبو محمود؟ ماذا لو شعر بالخوف بسبب فعلته وبلغ عنا كي يرتاح منا؟ ثم إني إن لم أذهب إلى طرابلس، سيأتي صاحب الملك إلى هنا ليتقاضى إيجاره، وأنا لا أريده أن يأتي لأنه سيقلب الدنيا رأساً على عقب ويسأل عن الدهان وعشرات الأشياء... هذا البغل خلفه كتيبة أولاد ولا يستطيع أن يتأخر على الخمس مئة دولار يوماً واحداً وإلا مات ولد من أولاده من الجوع! إيه... هيك والله...

فكر جوزيف بطريقة خرقاء جداً. فكر أولاً باصطحاب ليلى إلى بيته لكنه لم يستحسن الفكرة. فكر بعد ذلك بالرقيب روبير، فروبير يعيش وحيداً في بيت كبير معزول نسبياً عن قريته. لكن روبير مسؤول عنه في العمل كما أنه على علاقة طيبة مع نجيب. لا يريد توريطه في قصص مواخيره، أضف أن الرقيب روبير مهووس بالخرافات. سيخترع له مؤامرة، أو رواية طويلة... ولن ينجو من لسانه لو طلب منه المساعدة.

حار في ما يقوله لسمر التي وقفت تحدق فيه كمن يحدق في مرآة. ثم أتته فكرة رأى فيها شيئاً من الصواب فنطق بها على الفور آملاً أن تنهي حيرته:

- ألا يمكن أن تبقى هنا؟ يمكن أن أتفقدها في الليل... يمكن أن أنام هنا لو احتاجت. لا أعرف أي مكان آخر تذهب إليه...

فكّرت سمر سريعاً ثم رشقته بوابل من الأوامر:

- ستكون هذه خدمة العمر يا جوزيف... سأطلب من أبو نادر العجوز أن يقضي معها النهار، وسوف أدفع له مالاً. عشرون ألف ليرة تكفي العجوز... ثم تأتي أنت في الليل. أبو محمود لم يأت يوماً في النهار، إنه جبان... لا تأتِ بسيارتك. هناك موتسيك في القبو، خذه الآن معك، ضعه في صندوق السيارة، استعمله وتعال عندما تريد، فتخبئته سهلة... هل قدت دراجة نارية قبل اليوم؟ لا بأس ستتعلم سريعاً، حتى أنا... تسعون كيلو قدتها سابقاً... في كل الأحوال بعد عودتي من طرابلس سوف أطلب من ليلى المغادرة... فلتبحث لها عن مكان آخر، فليس بودي أن أجدها مقتولة في بيتي في المرة المقبلة... كس إخت الألف دولار.

- معي مسدس، لكنه أميري... كنت لأتركه هنا في النهار، ولكن لا يمكنني أن أخاطر به... سأمر بالطريق الفرعية عندما نسيّر دوريات.

- طيب... هذا لطف منك... هي تقول أن أبو خرى، قاصدة أبو محمود، غادر إلى سوريا، لكن لا يمكننا أبداً أن نصدق ما يقوله هذا المريض... إنه مختلّ. الآن دعنا ندخل ونكلمها قليلاً...

ثم أضافت مذعورةً:

- آه ما أغباني... أنت لم تتعرف عليها بعد!

دخل جوزيف غرفة ليلى فوجدها متمددة على السرير متوسدة ذراعها. كانت تعلم أنه سوف يأتي فقد أعلمتها سمر بقرب مجيئه. جلس على الديوان مقابل السرير ولاحظ فوراً أثر الشرائط اللاصقة على معصميها وفوق كاحليها. جلدها أحمر كالدماء في تلك المواضع. جلست سمر بجانبه وأخبراها عن الاتفاق الذي تمّ بينهما منذ قليل. قالت ليلى غير مكترثة:

- شكراً يا جوزيف، هذا لطف منك.

أضافت متوجهة إلى سمر:

- لكن أبو محمود لن يعود يا سمر. ذهب إلى حلب... لن يعود قبل أسبوعين على الأقل. قرأتِ رسالته على هاتفي، فلمَ الخوف؟

قاطعها جوزيف سائلاً:

- عفواً، هل يمكنني أن أعرف متى بعث الرسالة؟

- طبعاً! أرسلها مساء أمس.

- ومتى غادر إذن؟

- لا أعرف... في الرسالة قال إنه سوف يغادر في الليل، وأنا أؤكد الخبر لأن زوجي ينتظره. لقد كلمني دقيقتين... حمداً لله لا يزال حيَّاً... لقد سافر أبو محمود إلى عنده ليحضر المال... فلم يعد لدينا مال ننفقه.

رمق جوزيف سمر بنظرة حائرة شاعراً بأنه فقد طرف الخيط. إن ليلى فعلاً تقول إنها استيقظت ووجدت نفسها مقيدة في السرير، لكنّها تترك مجالاً واسعاً لعدة احتمالات بعكس سمر التي تصرّ على اتهام أبي محمود. كما يبدو أن ليلى غير متأثرة حقاً بما جرى لها، ولا تبدو خائفةً ذلك الخوف الكبير الذي يعتري سمر. لا بل إنها تنتظر عودة أبي محمود مع المال وهذا يعني أنها ما زالت تثق به. سريعاً تكهنت سمر بالأفكار التي تدور في رأسه فقالت بشيء من الغضب متوجهةً بكلامها إلى ليلى:

- أنا لا أصدق أنه ذهب إلى سوريا منذ الأمس... قد يكون ذهب اليوم بعد أن مرّ بك وفعل ما فعل... لا أفهم أصرارك على تحييد الشبهات عنه علماً أنك قلت مراراً إنه يرغب بك!

أجابت ليلى بهدوء:

- وأنا بدوري يا سمر لا أفهم لماذا تصرين على أن أبو محمود هو المذنب في حين قد يكون أي زبون آخر من زبائن الماخور هو الذي قام بذلك... وما هو هذا الذنب الذي تتكلمين عنه، إن كنت أنا نفسي نائمةً ولم أعرف ما حدث؟!

اصطنعت ليلى الترجي في كلامها وأضافت:

- يا سمر، أنا لم أكن لألغي فرضية أبو محمود في ظروف أخرى، وأنا لا أحبذ الدفاع عنه، فأنا، كما تفضلت، لا أطيق هذا الرجل لكني بحاجة له وإلا كيف أسيّر أموري؟ كل ما أقوله هو أنه صار في سوريا وأنه لن يعود أثناء غيابك في طرابلس... وأنا أكيدة أنه انطلق مع المساء أمس لأن زوجي قال لي إنه هاتفه من شبكة سورية ثابتة. أيعقل أن يكون هنا في هذه الغرفة وداخل سوريا في نفس الوقت؟

سألت سمر مفجوعة:

- شبكة ثابتة؟ لمَ لم تقولي لي إنه هاتف زوجك من خط سوري ثابت؟ في أي ساعة هاتفه؟ هذه القصة سوف تفقدني صوابي! أنطق يا جوزيف، قل شيئاً ما!

صمتت ليلى وصمت جوزيف شارد الذهن. تبدو له سمر خائفة على مصلحتها، بينما تبدو ليلى صادقة. تدخلت ليلى وقالت بكل كياسة:

- يا ست سمر... أنا مدينة لك باعتذار، فأنت بغنى عن هذه المشاكل كلها. هذا خطإي أنا، وسوف أطلب من زوجي عندما أتصل به أن يبحث عن مكان آخر لي... أعرف أن ما حدث مع أبو محمود ليس مطمئناً، لكن هذه مشاكلي أنا، وسوف أهتم بها أنا وزوجي... وأريدك أن تعرفي شيئاً، أشكرك من كل قلبي على كل ما قمت به لأجلي حتى الآن...أما الآن فيمكنك أن تذهبي إلى طرابلس وتنجزي أمورك... إذهبي قبل أن تموت عمتك... الموت حق... وهي تستحق أن تراك مرة أخيرة... أنا سوف أبقى هنا، وسيكون كل شيء على ما يرام. سأتدبر أمري جيداً بمساعدة أبو نادر وجوزيف، وسأترك الغرفة ما إن أشرح الوضع لزوجي.

١٤

وافق أحمد على استلام نوبات حراسة جوزيف الأمر الذي سمح له بزيارة الماخور ليلاً. وعلى الرغم من أن الرقيب روبير طرح عليه الكثير من الأسئلة المتعلقة أوّلاً بالدراجة التي تركتها له سمر وهي من دون أوراق قانونية ولا لوحة تسجيل، وثانياً بأسباب حاجته إلى التغيب عن المركز، إلا أنه أبى إطلاعه على الأسباب الحقيقية. قال إنه يريد أن يجري فحوصات طبية لأنه يشعر بإرهاق شديد في الأيام الأخيرة، موضحاً أنه يريد فقط أن ينام بضعة أيام في المنزل أولاً ليرى إن كان إرهاقه سيزول.

وقّع له الرقيب على ثلاث مأذونيات ليلية مدة الواحدة منها اثنتا عشرة ساعة.

في تلك الأيام الثلاثة ركن جوزيف الرينو **18** في البيت وصار يتنقل بين المركز والبيت والماخور مستعملاً الدراجة النارية التي تسببت بجلبة صغيرة في القرية. لقد ضحك عليه بعض الأصدقاء، وهم ليسوا في الواقع أصدقاء، إذ لم يكن له أصدقاء حقيقيون، بل مجرد مجموعة من المعارف، لأن الدراجة التي يقودها مشهورة بكونها دراجة المهربين. وكانت رؤيته عليها، ببدلته العسكرية المرقطة، تثير ضحكهم. لم يزعجه الأمر بتاتاً. وكلما مرّ بالمجموعة المتسكعة التي تحارب الضجر في زوايا القرية، وحيّا أفرادها، كانت المجموعة ترد على التحية صارخة بصوت واحد: أهلا يا حنووووون. في الواقع، لم تحمل الدراجة أيّ رقم على لوحة تسجيلها، إنما كتبت عليها كلمة واحدة بخط أحمر عريض: الحنون.

قصد جوزيف المركز ثم توجه إلى الماخور عندما حانت ساعة مأذونيته في أول المساء. ركن دراجته داخل أجمام الوزال العالية ثم تقدم مشياً على الأقدام في الظلام. كان يتوقع أن يرى أبا نادر العجوز هناك، ولكنّ ضوءاً أبيضَ محمولاً قابله أمام الباب، فتحسّس مسدسه وتابع تقدمه. كانت أضواء المنزل مطفأة، ولم يكن هناك، عدا الضوء المحمول، سوى ذاك الضوء البنفسجي الخفيف الذي يعلو العتبة. وقفت ليلى تنتظره أمام الباب وسلمت عليه ولاحظت بمهارة تحسب لها أنه يحمل مسدساً. سألته مازحة:

- فيه رصاص؟

- جاهز دوماً!

دخلا معاً وجلسا في الصالون. قالت له إن العجوز رحل منذ ساعتين وأكثر. نهضت بعد ذلك وتوجهت إلى المطبخ ثم عادت تحمل صينية ساخنة فيها حلوى "عيش السرايا". قالت:

- هذه ثاني مرة أحضّرها... هلّق تبرد قليلاً ثم تعطيني رأيك.

أجاب جوزيف مثل طفل مطيع:

- أكلت للتو... بس أكيد سأعطيك رأيي.

- يجب أن تأكل، ألا ترى أنك أصفر الوجه؟

- بلى... لكن أنا دائماً هكذا...

كانت ليلى ترى فيه طفلاً، وتكلمه مثل طفل في بعض الأحيان، ولاحظت أنه استاء قليلاً عندما سألته عن دراسته. وبينما هو يلتهم صحنه لينتهي منه، نهضت وجاءت بعلبة مناديل، سحبت منديلاً منها، اقتربت منه وأعطته إياه. التصقت به ووضعت يسراها على أعلى ظهره. كانت واقفة بجانبه تفوح منها رائحة عطر قوية. انحنت قليلاً ثم أخذت قطعة ثانية من الحلوى، وقد تحوّلت بين يديها هشة جداً وصارت مثل المعجون، أمسكتها بأصابعها الثلاث النحيفة المستقيمة ووضعتها في فمه.

من دون حياء صارت أصابعها تلعب بين شفتيه، ومرت الحركة ببطء شديد، بحيث لم يستوعب مباشرة ما هي فاعلة. كانت تتلذذ بإطعامه بتلك الطريقة وتمسد ظهره في الوقت عينه بيسراها. إنها تحضره لليلة لم يحسب لها.

لم تلبث بعد ذلك أن سألته إن كان يعارض فكرة الانتقال إلى غرفتها على السطح، فهي تفضل إقفال أبواب البيت من جهة، كما أن إمضاء السهرة على السطح من جهة ثانية سيتيح لهما رؤية أي ضوء يقترب من المنزل. أحس جوزيف، المحرج أساساً، بالمزيد من الحرج من فكرة وجوده معها في غرفة واحدة، فهو اعتقد أنه سيبقى في الطابق الأرضي، بينما تنام هي في غرفتها على السطح. غير أن العرض أثار أفكاره. ولم يكن يصدق عينيه وهو يصعد الدرجات خلفها، لم يكن يصدق أنه يمشي خلفها وأنها تأخذه إلى تلك الغرفة التي طالما استمنى متخيلاً نفسه فيها برفقتها.

جلس على الديوان داخل غرفتها بضع دقائق ثم انتظر خروجها من دورة المياه. كانت قد بدلت ملابسها ولبست قميص نوم أزرقَ داكناً ولماعاً.

في الليلة الأولى مارسا الجنس أكثر من مرة، وكان جوزيف مفتوناً بجمالها. لم يسبق أن لامست يداه امرأة بهذا الجمال والكمال. لم يكن يظن يوماً أن بإمكانه الحصول على امرأة مثلها، فيها كل ما يرغب فيه ويثيره. حتى أنه لم يتأكد من أنها تريد مشاركته السرير رغم دعوتها إياه إلى غرفتها الصغيرة. لم يتيقن إلّا في تلك الثانية الأخيرة، حين اقتربت منه بعد خروجها من دورة المياه، وفكت أزرار رداء النوم الناعم فظهر جسدها العاري، ثم جلست في حضنه تقبله على شفتيه وعنقه.

مرّت الليلة على هذا النحو، أنصت إلى طلباتها الهادئة، وأنجز ما طالبت به حرفياً.

في الليلة الثانية كانت قد جهزت زجاجات الخمر التي أتت بها من غرفة مولد الكهرباء القديم حيث خبأتها سمر قبل مغادرتها، فشربا ولعبا طاولة الزهر، وكانت تداعبه فيحاول الإقتراب منها غير مرة، لكنها تؤجل ذلك مؤججة هيجانه.

فاجأته بسؤال:

- ماذا حدث بينك وبين منال؟ لمَ انفصلتما؟

- وكيف تعرفين منال أنت؟ هل أخبرتك سمر كل ما قلته لها؟

ضحكت ليلى عندما رأت استغرابه الشديد وقالت:

- روء... لاء... لا تخف... سمر تحفظ الأسرار جيداً. إنها طيبة أكثر من اللزوم... أنا علمت من فيسبوك... وهل يخفى شيء على فيسبوك؟ لا أعرف إن كنت تذكر... عندما أضفتني قرأت على صفحتك أنك مخطوب... ثم مسحت العلاقة منذ فترة... ماذا حدث؟

- قصة تافهة...

- كيف يعني؟ أخبرني...

- لا شيء مهماً... في تلك الفترة تعرفت بصبية فرنسية... لم تكن علاقة جِدية لكنها كانت كافية لانفصالنا...

قالت ليلى بنبرة ساخرة متعجبة:

- فرنسية؟ لست هَيِّناً يا محتال...كم سنة بقيت مع منال؟

شعر جوزيف بشيء من الخجل. قال:

- أففف... لماذا تريدين تذكيري؟ بقيت معها تسع سنين. هل يمكننا الآن أن نتكلم عن أشياء أخرى؟

قالت بالإنجليزية بشيء من الدلع:

- تسع سنين... واااو شو كيوت...

لم تخفِ ليلى ميولها الجنسية الصريحة في تلك الليلة، وطلبت منه أن يقيدها إلى السرير، مشيرة إلى الشرائط الرمادية اللاصقة الكبيرة المخبأة على سقف الخزانة. كان جوزيف ثملاً ومهتاجاً، ينظر إلى ردفيها الغضين ويرغب بنهشهما. ومع أن الشرائط دفعته إلى التفكير بأبي محمود إلا أنه تناساه سريعاً وتناسى جميع القصص التي أدّت به إلى هنا. لم يرد أن يفكر بأي شيء كان في تلك اللحظة، ولم يرد أن يصدق أنها لفقت أكاذيب كثيرة عن تقييدها. كل ما أراده هو تحقيق رغباته، ولم يخطر بباله قطّ أن يطرح عليها سؤالاً وحيداً بهذا الخصوص. الوقت ليس وقته. ثمة "مِلْف" (**MILF**) كما يراها هو تتمدد أمامه عارية على الفراش، إنها تزيده بخمسة عشر عاماً على الأقل. هذا حلم من أحلامه يتحقق.

قيدها إلى السرير كما طلبت منه ثم أخذ يضاجعها ويضربها ويعنفها ويشتمها. رغم ثمالته كان خجولاً في البداية، لكنه في حماوة الممارسة نسي خجله. شعر وكأنه في مشهد بورنو، وأنها ممثلة، وأحس بإثارة لم يحسّ بمثلها قبلاً. صارت تقول له إنها أقامت علاقات مع ثلاثة رجال وأربعة في الوقت عينه فيزداد هيجاناً.

لبّى كل رغباتها التي تكن تختلف كثيراً عن رغباته هو. كلاهما متطرف من هذه الناحية. لقد أذلها كما كانت تطالبه. صفعها على مؤخرتها وثدييها ووجهها، وشدها من شعرها، وكانت تصرخ صراخاً، لا بل زعيقاً سمعته مخلوقات الوادي كلها.

كانت تقول له متحديةً كأنها لم تكتف بالضرب:

- هذا كل شيء؟! هذا كل ما يمكنك فعله؟!

لم يتكلم جوزيف وليلى إلاّ قليلاً جداً في هاتين الليلتين. كانا يمارسان الجنس ويأكلان ثم ينامان. وبعد استيقاظهما يمارسان الجنس مجدداً. حتى أنه في غير مرة كان يستيقظ بينما هي نائمة، فينزع عنها الغطاء ويتفرج عليها عارية.

في تلك اللحظات، عندما كان يقترب منها، كان يضطرب ويرتجف. فكرة أنه يرغب بالتلصص عليها تجعل منه شخصاً هائجاً يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه. يعرف أن لديه الكثير من الرغبات المحرمة وهذا يوتره كثيراً. ومع أنه لم يكن بوارد الإقدام على المسّ بها في نومها، إلا أنه كان يخاف من أن يفقد السيطرة على نفسه، فيستغلّها كما يفعلون في تلك الأفلام التي شاهدها سابقاً حيث تُستغل النساء النائمات أو الثملات. كان يضطرب ويشعر برعشة باردة تسري في جسمه، ولكنه كان يكتفي بالتفرج عليها.

لقد حاول غير مرة الحصول على رقم هاتفها، لكنها كانت ترفض رفضاً قاطعاً وتقول إن ما يعيشانه في هذه الأيام ليس إلا مغامرة ستنتهي عاجلاً أم آجلاً. كانت تذكره دائماً بأنها متزوجة، وأنه من الأفضل له ألا يسبب لنفسه المتاعب من أجل مرحلة جنسية عابرة، سيكتشف في ما بعد أنها لا تستحق اهتماماً أكثر من الذي يبديه اليوم.

في اليوم الثالث والأخير اتصلت به سمر صباحاً وقالت إنها سوف تصل إلى عكار قبل حلول منتصف الليل بعد أن أنجزت ما أرادت إنجازه ورأت عمتها المحتضرة. أضافت أن سائق التاكسي الذي سيوصلها إلى الماخور سيتكفل بترحيل ليلى من البيت. سألها إلى أين؟ فقالت له إلى جهنم الحمراء. إنها ليست مستعدة لإستقبالها دقيقة إضافية.

وأضافت بفرح:

- سأتصل بها وأبلغها فوراً، وهكذا نرتاح من هذا البلاء الذي نزل علينا.

انزعج جوزيف كثيراً. كان لا يزال ثملاً بعض الشيء ويشعر بدوار وألم في رأسه. لقد تجرع منذ عودته إلى المركز باكراً ستة فناجين قهوة. بعد أن أغلق السماعة اضطرب فجأة. ثمة فكرة راودته في ساعة ثمالته عندما كان برفقة ليلى يوم أمس، فكرة قوية جداً تعاوده الآن، تسري مثل سائل في جسمه وعروقه. اضطرب اضطراباً شديداً وارتعش بسببها، اختلجت مشاعره وأخذ صدره يرتجف وأسنانه تصطك بعضها ببعض، كأنه يخطط لجريمة. إن رحيل ليلى مساء اليوم لن يترك له الخيار. إنه يشك في أن يتمكن من رؤيتها في ما بعد، فهي تبدو مصرّة على إنهاء مغامرتهما عند هذا الحد.

عند التاسعة صباحاً، صعد إلى الدشمة على السطح في نوبة حراسة. سحب السلم الحديدي ورماه أرضاً، ثم دخل وجلس على الكرسي البلاستيكي البني. أغمض عينيه قليلاً، واضعاً سلاحه بجانبه على البرميل الحديدي. بعد خمس دقائق شعر بشهوة عنيفة تجتاحه. كل لحظات المجون التي عاشها ليل أمس تبخرت. إنه لا يرتوي. فتح التلفون وذهب مباشرة إلى موقع بورنو وأخذ يراقب الأجسام المعروضة أمامه. يريد أن يستمني وأن يتلذذ، أن يُسكن روحه المضطربة، لكنه في الوقت عينه، يريد أن يكون قوياً هذا المساء أيضاً، وأن يكون جاهزاً لليلة أخيرة مع ليلى.

أمام شاشة الهاتف، سأل نفسه حائراً:

- هل أقوم بهذا الأمر الآن، أم أتركه للمساء؟

في الحقيقة لم يكن يملك الخيار حتى لو طرح السؤال على نفسه. إن الصدرية الحمراء لتلك المرأة الموجودة على يسار الشاشة تعجبه، لكن ثمة شيئاً لا يروقه فيها. ربما تكون أظافرها السوداء الطويلة. الثانية، في أسفل الشاشة، مؤخرتها أجمل، لكن لباسها الداخلي ليس مثيراً كالأولى. هذا كيس خيش، لا ملابس داخلية، قال في نفسه.

المرأة الثالثة، المعروضة في وسط زحمة الصور، تبدو الأكثر إثارة بينهن جميعاً. لكن للأسف لم تكن مطروحة للمشاهدة بسبب نوعية الفيديو السيئة جداً. في منتصف الصفحة أيضاً وأيضاً، هناك موظفة جالسة، تلبس لباساً رسمياً وقميصاً بيضاء، تمدد تحت مكتبها سمكري. مقتها. هذه القصص صارت من الكليشيهات بالنسبة إليه. تابع البحث وانتقل إلى الصفحة الثانية من الموقع. دقق فيها سريعاً فلم يجد ما يستحق التوقف عنده.

ذهب بعد ذلك إلى تصنيفه المفضل الذي يحمل عنوان "مِلْف"، فوجد فيلما قصيراً لامرأة تنظف أرض البيت، تلبس سروالاً أزرق ضيقاً يلتصق بجسمها.

يحب جوزيف قصص البورنو الواقعية فهذه الأفلام تضاعف هيجانه. إضافة إلى أنّ شعْر الممثلة

في الشريط يشبه شعر ليلى، وقدر أنه لو نظر إليها من الخلف، لبدا ظهرا المرأتين متطابقين، وهذا الأمر زاد من إثارته.

مرّ ابن جار المرأة المشغولة بالتنظيف بالقرب من بيتها. شاب أقرع طويل، تملأ الأوشام جسمه، يلعب دور ابن الشارع. عندما لاحظ وجودها في الصالون تلصَّص عليها من خلف النافذة قليلاً، فيما هي منهمكة بالتنظيف قبل أن يدخل ويجبرها على ممارسة الجنس معه. بحسب سيناريو الشريط، لا تبدو المرأة موافقة من البداية على ممارسة الجنس مع ابن جارها الذي صُوِّر على أنه أصغر منها بكثير. إنها امرأة مشغولة، وعندها زوج سيصل مرهقاً من العمل بعد وقت قصير، وأطفال سيعودون من المدرسة، وهي لا تشغل بالها بالجنس بتاتاً. لذا، تقاومه قليلاً في بداية الأمر، وتحاول التملص منه مصدرة آهاتٍ خفيفةً. غير أنها أمام اندفاع شبابه وعضوه الكبير الذي تلتقطه الكاميرا غير مرة، وقبل كل شيء، معاملته السيئة لها وكلماته البذيئة عن رغباتها، ترضخ في النهاية، فتتوسل إليه ليضاجعها أكثر. لا بل أنها، في آخر الشريط، تتوسله كي لا يفرغ بداخلها فتحبل منه، ولكنه لا يستمع إليها فيقوم بذلك عمداً.

فكّر جوزيف في نفسه ناسياً أن ما رآه في الشريط تطبيق لاغتصاب مُلطَّف: هذا بالضبط ما حصل لي البارحة... كلهنّ يرغبن بهذا الأمر. كلهنّ متشابهات ويردن أن نعاملهنّ بقسوة، كلهنّ يرغبن بأن نكون مثل الحيوانات!

ثم تراءت له فكرة سريعة مميزة: كلهنّ هكذا إلا منال... يا لحظي الزفت كم هدرت من وقتي عليها. تحاشاها فوراً كأنها لم تعبر في خاطره، وبدأ يستمني في دشمة المراقبة في موقع قوى الأمن الداخلي، وكان استمناؤه غزيراً لدرجة أنه شعر بألم. لمعة صغيرة في أسفل ظهره، وصدع ناري في رأس إحليله. كأنه جرح.

ازداد وجه جوزيف شحوباً. لم يأكل شيئاً منذ الصباح. إنه يصدق كل ما يراه على موقع البورنو وهذه مشكلة لا يعيها. ومع أنه يعرف، نظرياً، أن الشريط مجرد تمثيل، إلا أن ردة فعله وهيجانه مع تقدم دقائقه، تظهر أنه يصدق ما يراه، وأنه مقتنع بهذه الأشياء والأساليب. إنه يرغب بامرأة مثل تلك. يرغب بليلى مجدداً، لكن هنا تظهر مشكلة أخرى. إنه يطارد سراباً، وكلما اقترب من المحرّمات أكثر، ظنّ أنه أمسك بالسراب.

في ما يتعلق برغبات جوزيف ونزواته هناك دائماً مشكلة وأمر غير مكتمل. ليلى نفسها أرادت جنساً عنيفاً معه منذ البداية. أرادت مجوناً لا حدود له ولا شرط. إنها هي التي دلّته على مخبأ الشرائط

اللاصقة. وهي لم تعارضه وتدفعه عنها كما عارضت الممثلة في الشريط، بينما يرغب هو بأن تقاومه ليلى!

تساءل كأنه اهتدى إلى الحل:

- ماذا لو أقرّ لها برغباتي؟ ربما نقوم بتمثيل المشهد معاً هذا المساء.

ثم أجاب:

- لكن ألن يبقى ذلك تمثيلاً؟

جرعة الأفكار التي تتوارد إلى ذهن جوزيف قوية جداً عليه. شعر بإرهاق نزل عليه بسلاسة كما ينزل ظل تحت شجرة. وفي غضون نصف ساعة هدّه التعب من حيث لا يدري، ورغب بنوم طويل. إن خلطة هذا الشريط الأخير الذي شاهده، إلى جانب أنها أثارته كثيراً، أدخلته في صراع مرير مع نفسه: لو أن ليلى لم تظهر من تحت الأرض، ولو لم تصبح احتمالاً موجوداً في حياته، لولَّد هذا الشريط شعوراً مثل غيره من الشرائط، وهو مزيج من الإثارة والرغبات والأحلام، ولكانت انقضت المسألة على استمناء كما جرت العادة. لكانت المسألة تحل ضمن حدود خياله الجنسي الذي يُستهلَك مع أشرطة البورنو أكثر وأكثر. لكن وجود ليلى يحول الأحلام إلى ممكن، وهذا بحد ذاته عبء إضافي عليه.

كأنه في عمقه يخاف من أن تخرب ليلى عليه إدمانه على البورنو. بات عبداً لمرضه لدرجة أنه يحميه. حتى بوجود ليلى بين يديه لا يكتفي ولا يرتوي وها هو يطلب أكثر، ويتحضر للأكثر. تعود إلى رأسه تلك الفكرة التي تجعله يضطرب والتي تعصف بروحه كما تعصف رياح البحر بمصاريع خربة خشبية معزولة على شاطئ.

نهض عن الكرسي، فتح حنفية الماء، غسل يديه، ثم رمى المناديل إلى الجهة الخلفية للمركز حيث المزبلة البيضاء، كما يسميها الرقيب روبير. قام بذلك مع أنه يعرف أن الأخير سوف يفقد صوابه لو اكتشف أنه هو من يرمي القذارات هناك، خصوصاً وأنه مقتنع بأن بعض العناصر يتغوطون في المكان. عاد إلى كرسيّه وغطّ في نوم عميق، لم توقظه منه إلاّ تنكة كوكاكولا رماه بها أحد العناصر الذين حاولوا إيقاظه بشتى الطرق عند الظهيرة.

وصل أول المساء إلى الماخور. الفكرة التي تدور في خاطره لم تفارقه منذ أن استيقظ. هذه آخر ليلة يقضيها مع ليلى ويجب أن يطبقها. وجد العجوز أبي نادر جالساً في الصالون يدخن النرجيلة. حيّاه، لكن صوته كان مخنوقاً جداً لشدة توتره، فلم يسمع العجوز تحيته. دعاه ليدخن النرجيلة معه وبدا أنه ليس مستعجلاً. بدأ العجوز يفتح معه أحاديث عن الأرض والبيوت والحرب وكل ما يعبر في خاطره

وذاكرته. كان جوزيف يبتلع ريقه مرة تلو الأخرى، ويهزّ برأسه من دون أن ينصت لأي كلمة. كان منفصلاً كلياً عن العالم حوله، وينظر نظراتٍ فارغةً إلى كل شيء. ولم يتوقف العجوز عن الكلام لولا نزول ليلى، فتشكرته، وطلبت منه المغادرة.

- أتت الساعة.

قال جوزيف في نفسه.

لم تبدُ قابليتها للجنس مفتوحةً كما مساء أمس. رفضت أن تشرب الفودكا عندما ملأ جوزيف قدحين، فتجرعهما واحداً تلو الآخر، ثم كأساً تلو الكأس إلى أن رمى زجاجة الفودكا من النافذة إلى الحقل وفتح واحدة جديدة. توقع أن تفارقه الرعشة الكهربائية التي تسري في جسمه بعد الشرب. وكان خائفاً من أن ترى ليلى الإضطراب في عينيه فتكتشف أنه نوى على فعلته.

لم تكن تنظر إليه أبداً. لديها انشغالات أخرى. تريد البقاء في المنزل بضعة أيام إضافية ريثما يعود أبو محمود، فتنتقل معه إلى مكان آخر. لا تريد أن تغادر. فلتذهب سمر ومشاريعها إلى الجحيم. ليس من المعقول أن تطردها بهذا الشكل، في منتصف الليل أيضاً. لقد تخاصمتا اليوم عندما تكلمتا عبر الهاتف، ولكنها رغم إصرارها على البقاء وانتظارها عودة سمر كي تحاول إقناعها مرة أخيرة، انهمكت بتجهيز حقائبها تحسّباً للأسوأ.

تبعها جوزيف إلى غرفتها على السطح وقد بدأ يشعر بهيجان طفيف. عبرت الأفكار في رأسه بطريقة استفهامات فجة، وكان يضطرب من مشروعه أكثر وأكثر.

عاد إلى الأسفل وتناول زجاجة الفودكا من دون القدح هذه المرة وصعد إلى الغرفة مجدداً. كان وجهه يزداد شحوباً، بينما ازداد سواد الدائرتين السوداوين حول عينيه اللتين مشحهما لون أصفر باهت. جلس على الديوان بجانب الحقائب وأخذ يشرب الفودكا جرعة تلو الأخرى. عندما صمّم نهائياً على القيام بما حضر لأجله، راح قلبه يخفق بشدة. شرب جرعتين إضافيتين، ثم نزع عنه جاكيته ووضعها بجانبه على الديوان.

كانت ليلى تدير له ظهرها وتضع أشياءها في حقيبة حمراء صغيرة فتحتها على السرير. قرر الوقوف والإنقضاض عليها، لكنه شعر بعجز رهيب يكتسح ساقيه. شعر أن أفكاره الجنسية هي وحدها الحيَّة في جسمه، وكل أعضائه الأخرى صارت متحجرة. لم يقوَ على النهوض. وسعل على الأثر سعالاً غريباً بعد أن اختنق بريقه.

التفتت ليلى إليه ثم قالت:

- هل أنت بخير؟ تبدو مرهقاً؟

كتم نفَسه الذي لم يعد يسيطر عليه ثم أجاب بصوت خافت:

- إيه تعبان قليلاً... لم أنم جيداً.

- جوزيف إذهب إلى البيت... ستصل سمر بعد ساعات...

- لا لا... سأنتظر وصولها معك.

انتظر دخولها إلى دورة المياه، فاستغل الفرصة لينزع كنزته عنه وليجهز نفسه بحسب الخطة التي وضعها. وضع مسدسه على الديوان، ثم شغل الكاميرا على هاتفه الذكي، زرع فيه السماعات كي لا يُسمع رنينه إذا اتصل به أحدهم، فقد كان خائفاً إلى درجة أنه لم يكن يؤمِّن لوضعية الصامت في الهاتف كما هي الحال في كل الأجهزة، ثم وضع الهاتف بعد ذلك على الديوان، أوقفه عامودياً، تاركاً شاشته إلى الداخل، موجهاً الكاميرا نحو السرير.

ما إن خرجت ليلى من دورة المياه حتى استعاد قواه، كأنه اقتنع أنه يمتلك أفضلية عليها، وهو عنصر المفاجأة. وقف سريعاً وتقدم منها، ثم جذبها إلى السرير بقوة، وأخذ ينزع قميصها عنها.

قال لاهثاً:

- لا يعقل أن تغادريني من دون وداع.

كان مهتاجاً مضطرباً، وأخافتها نظراته في بداية الأمر، لكنها سرعان ما أدركت أنه مهتاج حقاً وأنه يرغب فيها. تفاعلت معه سريعاً وغرقا في ممارسة الجنس. ركع خلفها على السرير. في لحظة ما، التفت جوزيف إلى الخلف ورمى نظرة إلى الهاتف، فوجد أنه انقلب على الديوان وصارت الكاميرا موجهة نحو سقف الغرفة. قدر أن ذلك حدث لأنه نهض بسرعة عن الديوان، فحرك وساداته الكحلية.

في تلك الثانية شعر أن مشروعه ينهار انهياراً تاماً، وتجمد برهة صغيرة بسبب رعشة قهر وخيبة عظيمة سرت في جسمه. أبقى ناظريه نحو الكنبة لفترة وجيزة، ثم تذكر فجأة أن عليه أن يتابع حركته مع ليلى لئلا تشعر بأي شيء غير طبيعي. لكن الوقت كان قد تأخر.

لم تنتفض ليلى مباشرة. روضت مئات الرجال والمهووسين والمرضى قبله، فلن يكون ترويضه صعباً عليها. طلبت منه أن يتمدد على السرير، ثم جلست فوقه بعد أن أدارت ظهرها نحو وجهه، ووجهها صوب الديوان. افتعلت بضع تأوهات بينما كانت تسترق النظر إلى المسدس. تذكرت سريعاً قوله إن مسدسه جاهز دائماً.

بلمح البصر، وجد جوزيف نفسه أمام امرأة عارية تلعب بالمسدس كما يلعب به عسكري محترف. كان لا يزال عارياً متمدداً على السرير. قالت له بلؤم وبرودة:

- لو قلت لي إنك تريد تصويري... لما رفضت. وما هو الشيء الذي لم أعطك إياه يا صغيري؟ آه يا

حلو؟ قل لي... كنت تحلم بي منذ اليوم الأول. رأيت ذلك في نظراتك جيداً... أنظر إليّ... لا أزال عارية... أنظر إلى نهديَّ... أنت تحبهما لا؟ هه... لن تراهما بعد اليوم... تريد تصويري هاه؟... من دون أن تقول لي هاه؟ طيب يا حلو...

حاول جوزيف أن يتكلم لكنه تشردق بريقه لشدة خوفه. شعر بتنميل قوي يكتسح جسمه. مد يده يبحث عن ثيابه ليغطي نفسه كأنما يريد حجب نفسه عن العار، فأبعدتها ليلى من أمامه بطرف قدمها. تراجع وانطوى على نفسه في زاوية السرير ثم أخذ الوسادة وغطى أجزاءه الحساسة بها. شعر بأنه إنسان وسخ، يغمر جسمه سائل دبق قذر.

رأت ليلى ذلك فلم تتأخر في إذلاله. أمرته برمي الوسادة أرضاً، ثم الغطاء فبقي عارياً يغطي أعضاءه الجنسية بيديه. حملت بعد ذلك هاتفه وراحت تعيد ببطء الفيديو لكنها لم ترَ فيه سوى سقف الغرفة. قالت ساخرة:

- يا لك من نذل... أنت تضع في رأسي أفكاراً جديدة هئ هئ هئ... ربما أصبح مشهورة مَن يعرف؟

تابعت الضغط على التلفون، ثم جلست عارية على الديوان توجه المسدس نحوه. صارت تخبره عن أمجادها في الحرب في سوريا، وعن الفظائع التي قامت بها، وتقول له إن أبا محمود سيكون سعيداً جداً بحزّ رقبته كما حزّ أعناقاً أخرى.

ضحكت بعد ذلك ضحكة فاجرة رجَّفت عظامه.

شعر جوزيف بأن ورقة التوت التي اختبأ خلفها طويلاً وقعت إلى غير رجعة. الإهانة كبيرة واللحظة تمر ببطء شديد، وهو لا يعرف كيفية الخروج من هذا المأزق. لم يتذكر ماريا في حينها، لكنه تذكر شيئاً ضبابياً قالته وتذكر أنها كانت محقة من دون أن يتذكر ما قالته حرفياً. فجأة شعر بالرعب يكتسحه: ماذا لو قتلتني؟ من سيعرف؟ والمسدس... كيف سأطالبها بالمسدس؟ هذا سلاح أميري... تضييعه خراب بيوت...

ارتاع جوزيف إلى أقصى حد لكنه لم يكن يأبه لذلك حقاً. في أعماق ظنونه خطر له سؤالٌ لم يكن ليجرؤ على طرحه، أو ليتمكن من طرحه في لحظة أخرى، تكون أخف وطأة من هذه: بمَ يفيد الخوف إن كانت المذلة كبيرة إلى هذه الدرجة؟

لم تنفعه كلمة السر التي وضعها بعد المشكلة مع ماريا، فالهاتف كان مفتوحاً عندما أخذته ليلى. وجهت الكاميرا نحوه وصورته مرة أولى. لم يسمع صوت التصوير لأن الإعدادات عدلت على وضعية صامت، لكنه فهم مباشرة أنها تصوره. مد يمناه وهمّ بالإقتراب منها، فأطلقت النار بجانبه عبر

النافذة. فرقع صوت الطلق الناري متسبباً بصدى مخيف داخل الغرفة. رمق جوزيف النافذة مشدوهاً يحدق بالثقب الذي خلفته الرصاصة. صرخ مترجياً:

- دخيلك... أبوس قدميك... سأعمل ما تطلبينه مني... دخيلك...

ردت ببرودة:

- ستبقى في مكانك إذن وتنفذ ما أطلبه منك حرفياً... وإلا وضعت الرصاصة الثانية في رأسك.

صمتت ليلى برهة تفكر وتنقر على الهاتف، ثم اقتربت من شنطتها وأخذت منها ملابسها الداخلية. رمتها بوجهه مع الشريط اللاصق. قالت:

- يلاّ... إلبس السترينغ... هئ هئ هئ... دورك الآن... هئ هئ هئ

حاول أن يتملص من طلبها فصرخت به جاحظة العينين:

- يلا وْلَكْ خنزير...

لبس جوزيف السترينغ الأحمر ثم أدار مؤخرته ووجهه في آن معاً نحوها. هكذا أرادت هي. كانت الدموع بدأت تسرح من مقلتيه. صورته ليلى كذا صورة بالسترينغ وحمالة الصدر، ثم أرسلتها، من حسابه الشخصي، إلى منال التي رأتها فوراً. أرفقت مع الصور العبارة التالية: خطيبك السابق يتهيّأ لعملية إغتصاب، وسأرسل لك صوراً لتري حالته بعد العملية.

وضعت ليلى الهاتف على المنضدة ثم سألت جوزيف إن كان في قريته مجموعة على الفايسبوك، فتضع الصور عليها وهكذا يعرف الجميع مستوى دناءته وحقارته. وبينما هي تحقق معه وتهدده، رمته منال بوابل من الرسائل والإتصالات، وراح الهاتف يضيء ويرج على المنضدة على عديد الثواني.

قال جوزيف في نفسه:

- الله أعلم إن أبلغت منال آخرين بما يحدث... يا للعار...

لم يبقَ لديه ما يخسره. التزم الصمت ورفض الإجابة عن أسئلتها، ثم خطر له أن الهاتف قد أقفل أوتوماتيكياً لأن ليلى أوقفت النقر عليه. وتلتها فكرة أخرى تقول إنه يفضل الموت على أن ترسل الصور ذاتها إلى لائحة أصدقائه وصديقاته الفايسبوكيين. عندها صمّم على أن لا يعطيها كلمة سر الموبايل حتى لو كانت تلك آخر لحظات حياته.

شعرت ليلى بعناده وأدركت أنه لن يسمح لها بالذهاب بعيداً أكثر من ذلك. قالت:

- أنت محظوظ جداً... لا أريد أن أنشغل بك هذه الليلة.

رمت الهاتف على السرير أمامه وطلبت منه أن ينزع منه الشريحة الصغيرة وكذلك الذاكرة. أمرته بعد ذلك بالنهوض، فقام وتوجه نحو الحمام كما طلبت. كانت خلفه ببضع خطوات تصوب مسدسها

نحو ظهره. ألقى جوزيف الشريحتين في المرحاض ثم فتح عليهما دورة المياه. عاد إلى مكانه وهي لا زالت تصوب المسدس نحوه.

أمرته بعد ذلك بأن يرمي التلفون من النافذة باتجاه الوزالات العبية، ثم قذفت ثيابه بوجهه قائلة:

- انقبر من وجهي الآن...

تعثر جوزيف فيما كان يلبس ثيابه. خرج من الغرفة متهالكاً. وقع على آخر درجات السلم بينما كان ينزل ليركب دراجته. وقف ورأى الدماء تغطي مرفقه الأيسر. لم يكن قد لبس من ثيابه سوى قميصه البيضاء التي لم يبكل أزرارها، وبنطاله. كان لا زال يسمع تهديد ليلى التي تلذذت برؤيته متضعضعاً، فقالت له إن أبا محمود سيعود غداً، وإنه في منطقة قريبة وليس في سوريا. ثم صرخت له قبل أن تنفجر مرة أخرى ضاحكة بفجور كأنها مشعوذة تقطن في وادٍ لا تسكنه إلاّ الوحوش:

- هيّجتك فكرة أني متزوجة؟... قل لي هه؟!... ها ها ها... هوه هوه... لستُ متزوجة... يا للخيبة يا خنثي... لكن أبو محمود سوف يربي القمل برأسك يا ابن المنتاكة...

ثم أطلقت عيارين ناريين وضحكت مجدداً.

لمّ جوزيف حذاءه وحمله بيديه بينما كان هارباً نحو الدراجة. كانت أنفاسه تضيق، وانتابه سعال قوي وهو يلهث كأنه عدا ساعتين. انتعل حذاءه، ثم ركب الدراجة النارية وانطلق من دون أن يضيء المصابيح.

في تلك الليلة، وعلى الدراجة النارية في الطريق إلى بيته، بكى جوزيف بكاءً شديداً، وانتابته مشاعر عديدة ومتقلبة كأنه صار مشرّعاً لكل المشاعر التي تهرّب منها طويلاً في عزلته، كأنه لم يعد يملك أي شيء ليحمي نفسه منها. لقد شعر بالذل والعار والقلق والخوف واليأس والندم... شعر بألم حاد في طبلة أذنه وبمرفقه الذي سالت منه الدماء. وعلى مدى ساعتين، عاش وهو يظن أنه إنسان ملعون، يبكي مثل طفل صغير. ربما كانت تلك هي الليلة الأولى منذ مدة طويلة لم يفكر جوزيف فيها بالبورنو. لقد عجز عن النوم واستمرّ يبكي، استمرّ يكره نفسه ويسأل عبثاً:

- ماذا فعلت لك يا الله كي أكون هكذا؟

١٥

جمع جوزيف كومةً كبيرة من الحطب اليابس، رشّ عليها المازوت وأشعلها. وضع الكومبيوتر والراوتر في النار. نظر حوله فرأى إلى جانب الحائط مطرقة كبيرة من تلك التي يكسر بها الصخر. حملها وبدأ يطرق ملتاعاً صارخاً وسط اللهب فتطاير الجمر والشرارات في كل الإتجاهات. كانت الساعة تشير إلى الواحدة ليلاً، وكان هناك صوت طبول آتياً من قرية باء. عاد إلى غرفته وما زال يبكي واللعاب يسرح على ذقنه والمخاط على شفته العليا.

يريد أن تنشقّ الأرض وأن تبتلعه. لم يكن بمقدوره البقاء في السرير دقيقة واحدة. خرج مجدداً إلى الباحة ثم إلى السطح، وبعد برهة قرر أن يستحم. دلف نحو الخزان ووضع يده فيه فوجد المياه باردة جداً. غسل وجهه سريعاً فعادت إليه الروح قليلاً، ثم حمل ثيابه ووضعها في السيارة. انطلق بعد ذلك نحو منزل العائلة. قبل أن يدخل إلى البيت اشتم رائحة قوية جداً ورأى بجانب الجورة الصحية ورشة بناء جدار إسمنتي يفصلها عن الطريق. عندما دخل إلى البيت وجد أمه سهرانة أمام التلفاز. استحم سريعاً، ثم خرج وقبلها وعانقها. تمدّد على الأريكة وألقى رأسه في حضنها لدقائق معدودة.

أدركت هدى فوراً أنه في ورطة، لكنها في الوقت عينه شعرت أن تلك الورطة انتهت... حاولت أن تعرف المزيد، فلم يبح بشيء. قال لها إنه سيخبرها بكل شيءٍ لاحقاً، فتصرفت بحكمة وتركته على سجيته مرتاحاً في حضنها آملة بأن تعرف المزيد في الأيام القادمة.

بعد مضي دقائق استعاد جوزيف نفسه شيئاً فشيئاً فسأل:

- ما هذه الرائحة الكريهة يا ماما؟ نجيب يصب الجورة يعني؟

- لاه يا ماما... أتى حمير (عمال) البلدية منذ يومين يبنون تصوينة بجانبها... قالوا يجب بناؤها قبل وصول الزفت... ففتحوها وسالت على الطريق... دخيلك يا أمي... دخيلك سأموت من الرائحة ومن آلام الرأس التي تسببها لي...

خرج جوزيف من المنزل بعد أن قال لها إنه اتفق مع منال على لقاء. قالت له مستغربة:

- ماما إنها الثانية فجراً! ماذا تريد منها الآن؟ لو عرف أبوها ستقع مشكلة كبيرة... انتظر حتى صباح الغد.

- لا لا لن أنتظر... ولا تقلقي... إنه مجرد لقاء أخير واتخذنا كل الاحتياطات اللازمة... ربما أعود لأنام هنا الليلة.

- إذهب إذن ولا تتأخر.

خرج من البيت وركب السيارة. كان يريد أن يرى منال من دون أن يعرف ماذا سيقول لها. توقف قليلاً تحت شباك غرفتها. كان الضوء مطفأً. تأمل النافذة قليلاً كأنه ينتظر أن تتحرك. فجأة أضاء أحدهم اللمبة، ورأى جوزيف منال تطل برأسها إلى الطريق. بقي متسمّراً في مكانه وأطفأ السيارة، وبعد برهة خرجت من بيتها بخفة سارق وأتت إليه، ومن هناك توجها معاً نحو الحديقة خلف الكنيسة.

جلسا على درج حجري صغير، ولاحظت منال جرحاً في مرفقه. كانت خائفة جداً عليه:

- ماذا حدث يا جوزيف... ما هذه الصور التي وصلتني؟

- هذه حماقة قمنا بها في المركز... لكن لم آتِ لهذا السبب...

- لا! أنت تكذب... أنت تبكي في الصورة...

- منال أرجوكِ... لقد مررت بكِ لسبب واحد. أريد أن أقول لك إنك طيبة جداً، وإني أخطأت بحقك... أنا لا أستحق إنسانة مثلك. أريد فقط أن تعرفي هذا الأمر...

ظنت منال في بداية الأمر أن جوزيف جاءها شاكياً، ولكنه خيب أملها مجدداً. مع ذلك شعرت بتعاطف معه عندما بدأ يبكي، لكنها كانت في حيرة من أمرها، وقصة الصور الغريبة لا تفارق فكرها. قالت بنبرة مباشرة:

- خاطرت وخرجت من البيت لأراك مع أنك لا تستحق! تركتني بين ليلة وضحاها... ألا تريد أن تقول لي ما قصة الصور؟

ثم رفعت صوتها منفعلةً:

- أين كنت مساء اليوم؟ مع من؟

لم يجبها عن سؤالها:

- صحيح ما تقولينه... أنا لا أستحق، أنا لا أستحق أي شيء على الإطلاق... أنا مجرد حقير يتلاعب بمشاعر الآخرين، مجرد وغد يريد أن يرى الجميع يتعذبون مثله...

شيئاً فشيئاً بدأت منال تتأكد من أن مكروهاً أصابه وأن هذه الصور التي وصلتها هي السبب في حالته الغريبة. اقتربت منه قليلاً فشمت رائحة كحول تفوح من فمه.

قالت:

- أسألك للمرة الأخيرة... لا يمكنني أن أبقى خارج البيت أكثر من ذلك... ماذا هناك؟ أم إنك سكران؟ هذا كل ما في الأمر؟ سكران وجئت لعندي؟

- بشرف الله منال... ألم تسمعي ما قلته؟ أردت فقط القول إني أخطأت معك... وصدقيني، صدقاً

هاه... أنا لا أقوم بهذا الأمر لأستعيدك...

قالت منال ببرودة فيها شيء من التهديد:

- لا تنم في بيتك اليوم... إذهب ونم عند هدى ونجيب. سنتكلم لاحقاً.

عاد جوزيف أدراجه وكانت أمه لا تزال جالسة أمام التلفزيون. طلب منها موبايلها وتوجه إلى غرفته حيث حمل تطبيق سكايب. كان يفكر في ماريا وفكرة أنها أصبحت في فرنسا تغريه قليلاً. يشعر أنه بحاجة لأن يقول كلّ شيء، لكن من غير المعقول ولا المناسب أن يقع اختياره على منال. قال في نفسه إنه لا خوف من أن يبوح لماريا بما جرى معه في ليلة النحس هذه. إن كان هناك من أحد سيفهمه من دون أن يعاتبه، فستكون هي. يأمل فقط أن تكون مستيقظة.

ما إن فتح حسابه حتى ظهرت نقطة برتقالية أعلى الشاشة، هي علامة رسائل سكايب. ضغط عليها فكانت ماريا هي التي تكلمه:

- أتمضي أنت أيضاً الليل بلا نوم؟

اتصل بها وباح لها بكل ما جرى له. أخبرها عن الشريط والماخور وليلى أيضاً، وحتى عن المسدس. قال لها إنه كان يفكر في الماخور بين الحين والآخر عندما كانا معاً، لكنه لم يذهب إلى هناك. ولم يقف عند هذا الحد، وكانت ماريا تنتظر نهاية الحديث لأنها تعرف أن الحادثة مع ليلى ليست سوى حبة الكرز على قالب الحلوى. لقد أقرّ لها بإدمانه على البورنو فلم تبدر منها أي ردة فعل أنما كانت حاضرة تستمع إليه وإلى كل كلمة قالها، كما ينصت طبيب نفسي إلى مريض عنده. قال لها:

- كنت مخطوباً أيضاً لفتاة من القرية... عندما تعرفت بكِ انتهى كل شيءٍ بيننا.

تجمدت ماريا مشدوهةً ثم قالت:

- منذ متى؟

- منذ تسع سنوات... كنا حدّدنا الزواج في الصيف...

- دعنا نكن واضحين يا جوزيف... بما أنك قررت أن تكشف كل ما لديك من أسرار، دعني أفهم: أنت لا تريد تحميلي قسطاً من المسؤولية في هذا الانفصال أيضاً؟ لا؟

- لا أبداً... أيضاً لا أخبرك بهذا الأمر لأقول إني أحببتك... كل ما في الأمر هو أني استطعت أن أقول لك ما عجزت عن قوله دائماً وهذا بحد ذاته...

صمت جوزيف وزفرت ماريا زفرة طويلة ثم قالت ساخرة:

صديقنا مع نساء ثلاث في الوقت عينه ولا يكتفي...

كانت تلك المرة الوحيدة التي تعبر فيها عن غضبها. تأثرت ماريا كثيراً، وكان يخالجها شعور

ملتبس، فيه من الفرح لأنها ناضجة بما يكفي، فقد كشفت سر جوزيف سريعاً، ومن الحزن لأنه يعني لها كثيراً. طالبته مجدداً أن يستشير اختصاصياً، وفي تلك اللحظة، عندما ودعته قبل خلودها إلى النوم، شعر جوزيف بمدى حزنها، ورأى خيبة أمل واضحة في نظراتها، لكنه كان مكدوداً ليفكر فيها أو في أيّ شيء آخر. تداعى بلمح البصر وغطّ في نوم عميق.

برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام ٢٠١٤، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (٢٠١٤) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (٢٠١٥) والثالثة (٢٠١٦).

اليوم، وبعد انتهاء الدورة الثانية، يمكن التأكيد أنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

لم يكد نجيب يفرح بنقل ولده العسكري جوزيف إلى القرية الشمالية الحدودية المجاورة لقريته، حتى بدأت متاعبه. فسلوك ابنه الطيب البريء أخذ في الانحراف.

سيطر جوزف بدايةً على خوفه فرافق زميليه في المخفر إلى الماخور، ثم استجاب لتشجيعهما فراح يشاهد المواقع الإباحية حتى بات يهدر عليها معظم وقته... وشيئاً فشيئاً قرّر الانتقال من الوهم إلى الواقع وخوض تجاربه منفرداً. فارتبط بعلاقة بماريا التي تسبّبت من دون أن تدري في فسخ خطوبته من منال. ثم أخذ يضاعف زياراته إلى الماخور طمعاً في لقاء المرأة الغامضة ليلى التي توهّمها بطلة من بطلات أفلام البورنو التي كان يدمن مشاهدتها، وقرّر التعامل معها على هذا الأساس...

نبذة عن المؤلف

سمير يوسف كاتب وصحافي لبناني. درس الفنون التشكيلية في بيروت.

يعمل في مكتب قناة «يورونيوز» في بروكسل.